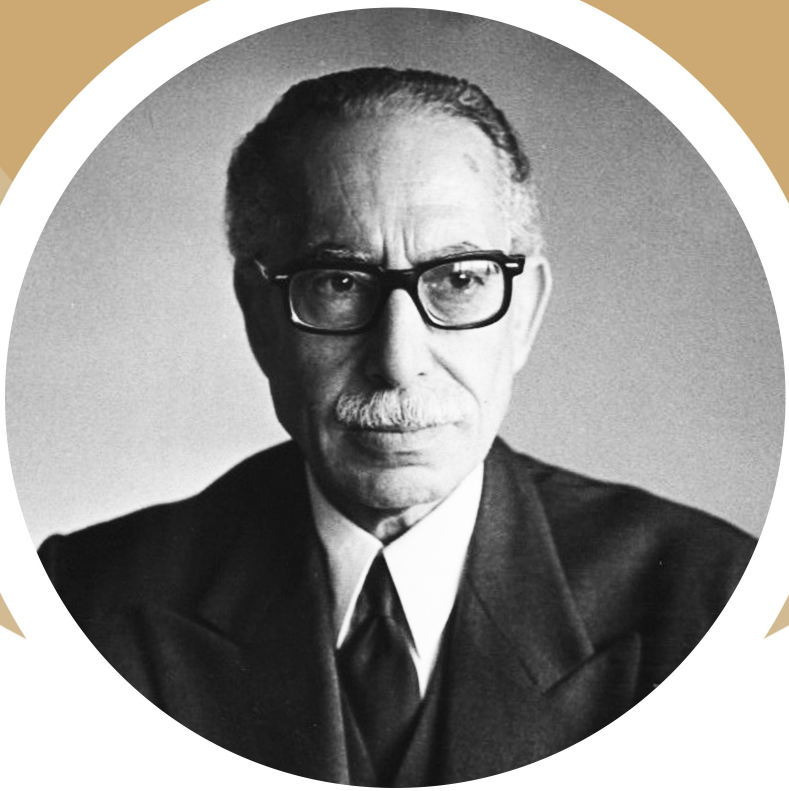

تحت شمس الفكر

توفيق الحكيم

تحت شمس الفكر

تأليف
توفيق الحكيم

هنـــداوي

تحت شمس الفكر

توفيق الحكيم

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ١ ٣٢٧٥ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر هذا الكتاب عام ١٩٢٩.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٣.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة لأسرة السيد الأستاذ توفيق الحكيم.

المحتويات

في الدين ١١
منطقة الإيمان ١٣
الدفاع عن الإسلام ١٧
نجمُ «أحمد» ٢٥
سرُّ العظمة ٢٩
المرأة في شباب النبي ٣٣
جوهر الدين ٣٧

في الأدب والفن والثقافة ٣٩
الخلق ٤١
النقد ٤٩
بين الخالق والناقد ٥٩
غاية الأدب والفن ٦١
الفن والإصلاح ٦٥
منابع الفن المصري ٦٩
الثقافة الشرقية ٧٥
كتلة «الروح الشرقي» ٧٩
إحياء الثَّقافة العربية القديمة ٨١
أثر أوروبا في أدبنا الحديث ٨٣
الأدب العربي في الماضي والحاضر ٨٥

كرامة الفكر ٨٧
من النيل إلى السين (١) ٨٩
من النيل إلى السين (٢) ٩٣
من مشكلات الفكر ٩٥
بين جيلَين ٩٩

في السياسة والاجتماع ١٠٣
«هستيريا» السياسة ١٠٥
جموح الديمقراطية ١٠٧
الإيمان بالمُثل العليا ١٠٩
داء الكلام ١١١
البرنامج أولًا ١١٣
فساد الدولاب ١١٥
الحرب بكلِّ الأسلحة ١١٧
نعيم الانتخابات ١١٩
شركة مقاولات الانتخابات ١٢١
العرائس ١٢٣
الشَّحَّاذون ١٢٥
الأحزاب والشعب ١٢٧
الفكر والشعب ١٣١
«كادر» المقامات ١٣٣
مصر والشعار الدولي ١٣٥
المعنى الإنسانيُّ لوحدة الزيِّ ١٣٧
البعث ١٣٩
دولة العُميان ١٤١

في المرأة ١٤٥
المرأة والمجتمع ١٤٧
المرأة والفن ١٤٩

المرأة والفنان ١٥٣
المرأة وأشواكها ١٥٥
المرأة والعظمة ١٥٧
المرأة والحرية ١٥٩
المرأة والبيت ١٦٣
سليقة المرأة ١٦٧

عرفت النور،
ورأيت الجمال،
ولكني ... احترقت!

في الدين

منطقة الإيمان

حينما كنتُ وكيلًا للنائب العام كنت أرى عجبًا في قاعات المحاكم وجلسات التحقيق، وكنت أفكر كثيرًا في أمر ذلك الشرير الذي طالعتُ صحيفة حياته؛ فإذا آثام ودماء تسيل منها، ومع ذلك يقف أمامي متطلعًا إلى السماء، ويأبى أن يُقسِم بالمصحف كذبًا!

هذا الآدمي قد انطلقت غرائزه الدنيا لا يقوم لها شيء، لكن — برغم هذا — في نفسه منطقة عذراء، لم يتطرق إليها فساد ... إنها منطقة العقيدة! ... أهناك إذَن حدٌّ فاصل بين العقيدة والغريزة؟

كذلك كان يدهشني أمر صديق من خيرة القضاة، كثير الورع، حريص على العبادة والصلاة، ومع ذلك كان عقله حرًّا من كل قيد.

ما يدور بيننا حديث في الخالق والخليقة حتى يذهب هو في التدليل والمنطق كل مذهب، إلى أن يقع في الإلحاد وإنكار الجنة والنار! ... ويؤذِّن المؤذن بالصلاة؛ فإذا القاضي يسرع مُخلصًا إلى ذلك الدين الذي قال فيه منذ لحظة قولًا عظيمًا! ... أهناك إذَن حدٌّ فاصل بين العقيدة والعقل؟

إذا قلنا مع القائلين: إن العقل والقلب والغريزة ملَكاتٌ ثلاث منفصلة إحداها عن الأخرى؛ فإن هذا القول يؤدي حتمًا إلى نتائج غريبة قد تُعدِّل من نظرتنا إلى الأشياء. ولعل أول ما يُفهم من هذا الاستقلال بين الملَكات، تباين ألوان الحقيقة لدى كلٍّ منها؛ فما يُصدَّق عند القلب قد لا يُصدَّق عند العقل، بل إن كل ملَكة من تلك الملَكات تسيطر على عالم مختلف جِد الاختلاف عن عالم الأخرى! ... يقابل ذلك في المحسوسات تلك الحدود والحواجز بين الحواس؛ فعالم البصر منفصل عن عالم السمع، والحقيقة البصرية غير الحقيقة السمعية، ما يعتَبر موجودًا في منطقة العين لا يعتَبر موجودًا في منطقة الأذن ... فهذا الحجر الساكن حقيقة تراها العين المُبصرة، ولكن الأُذن لا تدرِك ولن تدرِك هذه

الحقيقة، ولن تعرف مطلقًا ما هو الحجر وما شكله؛ لأن عالمها — وهو عالم الأصوات — لا يخطر له بالٍ أن في الوجود عالمًا، يُسمى عالم المرئيات!

فالعقل لا يدري إلا ما يلائم وظيفته وما يخضع لمقاييسه.

والحقيقة العقلية ليست الحقيقة المطلقة وليست الحقيقة كلها، ولكنها الحقيقة التي يستطيع العقل أن يراها من زاويته؛ فإذا كانت العقيدة مرجعها القلب؛ فإن العقل لن يرى منها إلَّا الشطر الذي يستطيع أن يراه، ويظل محجوبًا عنه الشطر الواقع في دائرة القلب!

فوجود الخالق الجبار المنتقم الرحمن اللطيف، لا شك فيه عند القلب، أما العقل فإن استطاع بالمنطق أن يتصور وجود الخالق؛ فإنه قد يرتاب في صحة تلك الصفات المنسوبة إليه، وقد يراها — في منطقه — صفاتٍ آدمية، أسبغها البشر على خالقهم، إجلالًا له؛ لأنهم وهُم بشر لا يملكون غير تلك الصفات التي هي في عُرفهم مرادف الإكبار والتقدير.

أما حقيقة الخالق فأمر بعيد عن مقدرة العقل، وهل يستطيع الجزء أن يرى الكل؟ ... هل تستطيع الكبد في جسم الإنسان مثلًا أن تُحيط إدراكًا بحقيقة شكل الإنسان الخارجي، وهي جزء منه داخل فيه؟ ... إن كل ما تدركه الكبد هو وجود تلك المواد التي تمرُّ بها كل يوم، فتحوِّلها إلى إفرازات دون أن تدري من أين جاءت، ولا أين تذهب. العقل أيضًا يرى الأحياء كل يوم تدور دورتها دون أن يدري من أين جاءت، ولا إلى أين تذهب ... فالحقيقة العقلية أو العلمية لا يتجاوز علمها الكائنات التي تمُرُّ بالحواس، ومن يحمِّل العقل أكثر من قدرته فهو إنما يريد منه المستحيل، كمن يطلب إلى الكبد مَضغ الطعام، فالحقيقة العقلية أو العلمية شيء، والحقيقة الإحساسية أو الدينية شيء آخر!

وإن رجال الدين يقعون دائمًا في الخطأ؛ إذ يبسمون بسمة الظفر كلما قال رجال العلم قولًا يتفق مع الدين، ويقطِّبون تقطيب الغضب كلما نقض رجال العلم أُسس الدين ... وما أحراهم في كلتا الحالين أن يبسموا غير مكترثين بسمة الصفاء واليقين! ... ولم يعتقدوا تمام الاعتقاد أن العلم في كلتا الحالين كاذب عندهم وإن صدق، وأن لا شأن للعلم بهم، وأن الحقيقة الدينية بعيدة عن وسائل العلم ودائرة بحثه، وأن العقل يستطيع أن يهدم الدين كما يشاء، دون أن يسمع القلب طَرقة واحدة من طرقات مِعوله، وأن أولئك الملحدين الذين سخَّروا عقولهم الكبيرة لتفنيد الدين وهدم أصوله والشك والتشكيك في جوهره ووجوده؛ لم يستطيعوا لحظة واحدة أن يُسكتوا صرخات القلب الحارة الصاعدة إلى ذلك الموجود الأسمى الذي بيده نفوسهم!

إن عقولهم كانت تُرغي وتُزبد بالكلام المعقول والمنقول، وقلوبهم في معزِل عن كل هذا الصخب، لا تشعر ولا تدري شيئًا عن المعركة الحامية القائمة في تلك الرءوس ... فالتوفيق

بين العلم والدين ضرب من العبث ... على أن اجتهاد المجتهدين في هذه السبيل لم يَتعدَّ ذلك الجانب من الدين الخاضع بطبيعته لحكم العقل، وهو الجانب الاجتماعي المبني على الأخلاق، وما يتفرع عنه من فكرة الفضيلة والرذيلة!

وهنا يتساءل الناس دائمًا: ما الدين؟ ... أهو شيء مفيد للبشر في أمر حياتهم ومعاشهم، أم هو طريق لحل اللغز الأكبر وسبيل للنفوذ إلى المجهول الأعظم؟

الواقع أن كل دين من الأديان المعروفة يتكوَّن من هذَين الوجهَين؛ فالدين — باعتباره قانونًا اجتماعيًّا يُنظم الغرائز، ويحفظ التوازن بين الخير والشر — أمر متعلق بذات الإنسان ... متصل إذن بعقله وعلمه ... على أن عنصر «الأخلاق» في الأديان ليس كل جوهرها؛ فإن بعض البلاد قد استطاعت أن تجد في «الأخلاق» غنًى لها عن «الأديان»: إنما قوة الدين وحقيقته في العقيدة والإيمان بـ «الذات الأزلية»!

هنا لا سبيل إلى الدنو من تلك «الذات» إلا عن طريق يقصر عنه العلم الإنساني، بل يقصر عنه كل علم؛ لأن العلم معناه الإحاطة، والذات الأبدية لا يمكن أن يحيط بها محيط؛ لأنها غير متناهية الوجود، فالاتصال بها عن طريق العلم المحدود مستحيل!

ها هنا يبدو عمل الدين ضرورة للبشر.

إني ما كتبتُ هذه الكلمة اليوم إلا لألفت نظر رجال الدين إلى وجوب التسامح والهدوء، كلما قام باحث يتكلم في الدين عن طريق العقل، فإن الشرق اليوم مُقبل على حياة علمية واسعة، مهادها المعاهد والجامعات، ولا بد لنماء مَلَكة العقل من التفكير الحر الطليق، كما أنه لا بد لحياة مَلَكة القلب من الشعور الحار العميق، فليترك رجال الدين المفكرين يفكرون كما يشاءون، ويثرثرون كما يريدون، ويعرضون بضاعتهم الكلامية التي هي كل بهرجهم الآدمي الأجوف؛ فإن كل هذا الضجيج لن يصل خبره إلى القلب، الذي لا يفتر لحظة عن التسبيح — رغمًا عنهم — بالعقيدة التي ركبت عليها حياته النابضة!

الدفاع عن الإسلام

قرأت — لثلاث عشرة سنة خلت[1] — قصة «فولتير» التمثيلية «محمد»، فخجلتُ أن يكون كاتبها معدودًا من أصحاب الفكر الحر، فقد سبَّ فيها النبي العربي سبًّا قبيحًا عجبت له، وما أدركت له علة! ... لكن عجبي لم يطُل؛ فقد رأيته يُهديها إلى «البابا بنوا الرابع عشر» بهذه العبارات:

> «فلتستغفِر قداستك لعبدٍ خاضع، من أشد الناس إعجابًا بالفضيلة، إذ تجرَّأ فقدَّم إلى رئيس الديانة الحقيقية ما كتبه ضد مؤسسِ ديانة كاذبة بربرية، وإلى من — غير وكيل رب السلام والحقيقة — أستطيع أن أتوجَّه بنقدي قسوة نبي كاذب وأغلاطه؟ فلتأذن لي قداستك في أن أضع عند قدمَيك الكتاب ومؤلفه، وأن أجرؤ على سؤالك الحماية والبركة، وإني مع الإجلال العميق أجثو وأُقبِّل قدمَيك القدسيتَين.»
>
> «فولتير»
> ١٧ أغسطس سنة ١٧٤٥م

وعلمت في ذلك الحين أن «روسو» كان يتناول بالنقد أعمال «فولتير» التمثيلية، فاطَّلَعت على ما قال في قصة «محمد» علَّني أجد ما يرُد الحق إلى نصابه، فلم أرَ هذا المفكر الحرَّ

---

[1] من تاريخ الطبعة الأولى لهذا الكتاب في عام ١٩٣٨م.

أيضًا يدفع عن «محمد» ما أُلصِق به كذبًا، وكأن الأمر لا يعنيه، وكأن ما قيل في هذا النبي لا غبار عليه ولا حرج فيه، ولم يتعرض للقصة إلَّا من حيث هي أدب وفن!

ولقد قرأت بعد ذلك رد «البابا بنوا» على «فولتير» فألفيته ردًّا رقيقًا كيِّسًا، لا يشير بكلمة واحدة إلى الدين، وكله حديث في الأدب، فعظم عجبي لأمر «فولتير» وسألت نفسي طويلًا: أيستطيع عقل مثقف، كعقل هذا الكاتب العظيم، أن يعتقد ما يقول؟ ... دين تبعه آلاف الملايين من البشر على مدى الأجيال هو في نظره حقًّا دين كاذب؟ ... ومبادئ إنسانية كالتي جاء بها الإسلام هي عنده حقًّا مبادئ بربرية، أم أنه التملق والزُّلفى والنفاق! ... وأن الزمن والتاريخ يضعان أحيانًا أقنعة زائفة على نفوس تزعم أنها خُلقت للدفاع عن حرية الفكر؟

منذ ذلك اليوم وأنا أُحس كأني فُجعت في شيء عزيز لديَّ؛ الإيمان بنزاهة الفكر الحر ... ولقد كنت أحيانًا ألتمس الأعذار لـ «فولتير»، وأزعم أنه قال ما قال لا عن مجاملةٍ أو مَلق، بل عن عقيدة وحُسن طويَّة، استنادًا إلى علم خاطئ بأخبار النبي، ولكن كتابه إلى «البابا» كان يتهمه اتهامًا صارخًا، ولا يدع مجالًا للشك في دخيلة أمره!

إني قرأت لـ «فولتير» كُتبًا أخرى، كانت تكشف عن آراء حُرة حقًّا في مسائل الأديان، وتنمُّ عن رُوح واسعة الآفاق، تكره التعصب الذميم، فما باله عندما عرض لذكر «محمد» والإسلام كَتبَ شيئًا هو التعصب بعينه، تعصب لدينه، ذهب فيه إلى حدِّ السجود وتقبيل الأقدام، لا لرب العزة والخلق، بل لبشر هو رئيس الكنيسة التي ما أرى أن «فولتير» كان في ذات يوم من خُدَّامها المخلصين؟ ... هي الأطماع التي كانت تدفع «فولتير» — فيما أرى — إلى التمسُّح بأعتاب الملوك والبابوات، ولقد يقدِّم ثمنًا لذلك أفكاره الحرة أحيانًا!

منذ ذلك الحين و«فولتير» عندي مُتهم، ولن أُبرئه أبدًا، ولن أَعُده من بين أولئك العظام الذين عاشوا بالفكر وحده وللفكر وحده! ... وأحسب أن التاريخ العادل سوف يحكم عليه هذا الحكم ... على أن الذي يدعو إلى الدهش أكثر من هذا أن الشرق والإسلام، وقفَا من الأمر موقف النائم الذي لا يعي ولا يشعر بما يحدث حوله، فلم أرَ كاتبًا من كتَّاب الإسلام قام في ذلك الوقت يدفع عن دينه هذا الهراء الذي قاله «فولتير»! ... ويقذف في وجه هذا الكاتب بالحقائق الباهرة القاطعة، أو أن مؤلفًا وضع كتابًا يبرز فيه شخصية النبي العظيمة واضحة جلية! ... لقد كان الشرق في ليلٍ هادئ بهيم، لم تُثِر فيه حركة «فولتير» يومئذٍ ساكنًا، اليوم قد تَغيَّر الأمر، ولاحت في أفق الشرق خيوط الفجر، وقام في هذا القرن كتَّاب

يمجدون عقيدتهم، وهم يعلمون أن في ذلك تمجيدًا للحق وللشرق؛ فإن المسألة ليست مسألة دين فقط، إنما هي أيضًا مسألة جنس وقومية!

وإذ تقول أوروبا: «الإسلام» فإنما تعني غالب الأحيان «الشرق» ... والدفاع عن الإسلام لم يكن في كل الأحيان دفاعًا عن عقيدة وديانة، إنما هو دفاع عن حياة تلك الكتلة التي يُسميها الغربيون: «الشرق» ... إن الحروب الصليبية في حقيقتها لم تكن إلَّا حرب الغرب على الشرق، وإن الفتح الإسلامي عندما بلغ فرنسا وهدد أوروبا لم يكن إلا حرب الشرق على الغرب!

هذا المدُّ والجزر بين الغرب والشرق يفهمه مفكرو الأوروبيين تمام الفهم، ويحسبون له الحساب، ويعملون دائمًا على أن تكون الغلبة لهم آخر الأمر، أو أن يُطيلوا على الأقل أمدَ غلبتهم إن كان لا بدَّ من تبدُّل الحال، ومن دوران الفلك طبقًا لناموسٍ أعلى لا قِبَل لهم به، فالدفاع عن شخصيتنا وعقيدتنا دفاع عن حياتنا، وإن الكتابات التي تُوجَّه لهذا الغرض النبيل ينبغي أن يكون لها علينا حق المؤازرة والتعضيد، وإني لست بناقدٍ منقطع للنظر في أعمال المؤلفين وتقدير قيمة ما يكتبون، ولكني أريد أن أُشير إشارة سريعة إلى صوت من الشرق ارتفع في العصر الحديث محتجًّا مدافعًا؛ هو صوت الأستاذ الإمام محمد عبده، في ردِّه على «هانوتو»، فلقد نشر «جابريل هانوتو» الكاتب والوزير الفرنسي يومًا مقالة جاء فيها:

> «قد أصبحنا اليوم إزاء الإسلام والمسألة الإسلامية! ... اخترق المسلمون أبناءُ آسيا القارة الأفريقية بسرعة لا تُجارَى حاملين في حقائبهم بعض بقايا تمدين البيزنطيين «يونان الشرق»، ثم تراءوا بها على أوروبا، ولكنهم وجدوا في نهاية انبعاثهم هذا مدنية يرجع أصلها إلى آسيا، بل أقرب في الصلة إلى المدنية البيزنطية مما حملوه معهم، ألا وهي المدنية الآرية المسيحية؛ ولذلك اضطروا إلى الوقوف عند الحدِّ الذي إليه وصلوا، وأُكرهوا على الرجوع إلى إفريقية؛ حيث ثبتت فيها أقدامهم أحقابًا متعاقبة!»

ثم قال في موضع آخر:

> «وقصَر فريق منا بحثه وحكمه على ما شاهده من المناقضات والخلافات بين الدينَين المسيحي والإسلامي، فرأى في الإسلام العدو الألد والخصم الأشد ...»

قال المسيو كيمون في كتابه «باثولوجيا الإسلام»:

«إن الديانة المحمدية جُذام فشا بين الناس، وأخذ يفتِك بهم فتكًا ذريعًا، بل هي مرض مروع وشلل عام. وجنون ذهولي يبعث الإنسان على الخمول والكسل، ولا يوقظه منهما إلَّا لِيسفك الدماء، ويدمن معاقرة الخمور، ويجمَح في القبائح.

وما قبر «محمد» في «مكة» إلَّا عمود كهربائي يبثُّ الجنون في رءوس المسلمين، ويُلجِئهم إلى الإتيان بمظاهر الصرع «الهستيريا» العام والذهول العقلي، وتكرار لفظة «الله» إلى ما لا نهاية، وتعود عادات تنقلب إلى طباعٍ أصلية، ككراهية لحم الخنزير، والنبيذ، والموسيقى، والجنون الرُّوحاني، والليمانيا، والماليخوليا، وترتيب ما يُستنبَط من أفكار القسوة والفجور في اللذات» ... إلخ.

أمثال هذا الكاتب يعتقدون أن المسلمين وحوش ضارية، وحيوانات مفترسة كالفهد والضبع، كما يقول المسيو «كيمون»: «وأن الواجب إبادة خُمسهم.» كما يقول أيضًا: «الحكم على الباقين بالأشغال الشاقة، وتدمير الكعبة، ووضع ضريح «محمد» في متحف «اللوفر» ...» وهذا أيضًا قوله: «... وهو حل بسيط وفيه مصلحة للجنس البشري ... أليس كذلك؟» ... ولكن قد برح عن خاطر الكاتب أنه يوجد نحو ١٣٠ مليونًا من المسلمين،[٢] وأن من الجائز أن يهبَّ هؤلاء «المجانين»، للدفاع عن أنفسهم، والذَّود عن بيضة دينهم ... إلخ ... إلخ!

ما كاد يظهر هذا الكلام في صحيفة المؤيد، حتى قام الأستاذ «الإمام الشيخ محمد عبده» لساعته مجرِّدًا قلمه، وكتبَ نحو أربع مقالات هي أقوى ما قرأتُ دفاعًا عن الإسلام، وإظهارًا لحقيقة مبادئه الخافية على أغلب الأوروبيين. وقد ردَّ على «هانوتو» فيما أوردنا صائحًا:

«ما هذا «التمدين الآري» الذي كانت عليه أوروبا عندما أنقص أطرافها المسلمون؟ ... هل كانت تلك المدنيَّة هي التسافك في الدماء، وإشهار الحرب بين الدين والعلم، وبين عبادة الله وبين الاعتراف بالعقل؟ نعم، هذا هو الذي كان معروفًا عند الغربيين وقتما ظهر الإسلام!

[٢] عدد المسلمين الحقيقي في العالم يبلغ نحو ٥٠٠ مليون.

ماذا حمل الإسلام إلى أوروبا؟ ... وما هي المدنيَّة التي زحف عليهم بها فردُّوها؟ ... زحف عليهم بما أفاد من صنائع الفُرس وسكان آسيا من الآريين ... زحف عليهم بعلوم أهل فارس، والمصريين، والرومانيين، واليونانيين! ... نظَّف جميع ذلك، ونقَّاه من الأدران، والأوساخ التي تراكمت عليه، بأيدي الرؤساء في الأمم الغربية لذلك التاريخ، وذهب به أبلجَ ناصعًا، بهَر به أعين أولئك الغافلين المتسكِّعين، الذين كانوا في ظلمات الجهالة لا يدرون أين يذهبون.

إني أكِيل لمسيو «هانوتو» إجمالًا بإجمال، والتفصيل لا يجهله قومُه، وكثيرٌ من منصفيهم لم يستطع إلا الاعتراف به.

إن أول شرارةٍ ألهبت نفوس الغربيين، فطارت بها إلى المدنيَّة الحاضرة، كانت تلك الشعلة الموقدة التي كان يسطع ضوءها من بلاد الأندلس على ما جاورها، وعمل رجال الدين المسيحي على إطفائها عدة قرون، فما استطاعوا إلى ذلك سبيلًا!

واليوم يرعى أهل أوروبا ما نبت في أرضهم، بعدما سُقيت بدماء أسلافهم المسفوكة بأيدي أهل دينهم، في سبيل مطاردة العلم والحرية وطوالع المدنيَّة الحاضرة!»

ثُم ردَّ «الإمام» في موضعٍ آخر:

«يجب على الباحث في الإسلام أن يطلبه في كتابه، كما يجب عليه أن يطلب آثاره، والإسلام إسلام، والمسلمون مسلمون، ولو استشمَّ مسيو «كيمون» الذي استشهد «هانوتو» بكلامه ريح العلم، لما استفرغ ذلك القذر من فِيهِ، فسخافة رأيه وقلَّة أدبه تكفيه!»

«من أين أتى المسلمون، وكيف دخل عليهم في عقائدهم بالتشبيه؟ ... وفي عوائدهم بالتمويه؟ ... وممن تعلَّموا الافتراس؟ ... وعمن أخذوا الضراء بالشهوات؟ ... أنا أعلم ذلك وأهل العلم يعلمون، والله من ورائهم محيط!»

«اتَّبع المسلمون سَنن مَن قبلهم شبرًا بشبر، وذراعًا بذراع، حتى سقطوا في مساقطهم، وطارحوا الأوهام حتَّى انجرُّوا إلى مطارحهم، وبادءوا بما كان لهم وما عليهم!»

«حدثَت في الدين بِدعٌ أكلت الفضائل، وحصدت العقائد ... وترامت بالناس إلى حيث يُصبُّ عليهم ما استفرغه «كيمون»!»

«أمَّا لو رجع المسلمون إلى كتابهم، واسترجعوا باتِّباعه ما فقدوه من آدابهم، لسلِمت نفوسهم من العيب، وطلبوا من أسباب السعادة ما هداهم الله إليه في تنزيله على لسان نبيِّه، ومهَّده لهم سلفهم، وخطَّه لهم أهل الصلاح منهم، واستجمعت لهم القوة ودبَّت فيهم روح الفتوة، وكان ما يلقاه «هانوتو» و«كيمون» من دين صحيح شرًّا عليهما مما يخشونه من دينٍ شوهته البِدع!»

يرى «كيمون» أن يُخلى وجه الأرض من الإسلام والمسلمين، ويَستحسن رأيه «هانوتو» لولا ما يقف في طريق ذلك من كثرة عدد المسلمين، وبئس ما اختارا لسياسة بلدهما أن يظهر ضعفهما، ويُعلنا خطل رأيهما وضعف حلمهما!

«أمَا فليعلم كل مَن يخادع نفسه بمثل حلمهما أن الإسلام إن طالت به، غيبة، فله أوبة، وإن صدعته النوائب فله نوبة، وقد يقول فيه المنصفون من الإنجليز مثل «إسحق طلير» ... وهو قسٌّ شهيرٌ ورئيسٌ في كنيسةٍ: إنه يمتد في أفريقيا، ومعه تسير الفضائل حيث سار؛ فالكرم والعفاف والنجدة من آثاره والشجاعة والإقدام من أنصاره!».

نعم، لقد آن للغرب أن يحترم عقائد الشرق، بل لقد آن للغرب أن يدرك أن «محمدًا» والإسلام هما من منابع الفكر الحر، وطفرة من طفرات البشرية المتحررة! ... والدليل على ذلك شخصية النبي ذاتها، وغرضه في الدعوة إلى دين، جوهره إقناع النفس بالحقيقة العُليا، فـ «محمدٌ» هو أول نبي مجَّد البشرية بأن أعلن أنه بشر، وأن دينه هو دين الفطرة البشرية، وقاوم أولئك السفهاء الذين كانوا يطلبون إلى الأنبياء أن يثبتوا نبوتهم بالمعجزات، فأثِموا في الفكر البشري، قبل أن يأثموا في حق الدين!

فالمعجزة — أي الإتيان بعملٍ خارقٍ للمعتاد — لا تدل على شيءٍ ولا تثبت نبوة ولا تدحضها؛ فإن من الكهان أو بسطاء الناس مَن يملكون أحيانًا تلك القوى الخارقة في أجسامهم أو عقولهم أو أرواحهم، دون أن يكونوا من أجل ذلك أنبياءَ ... إنَّ «النبي» ليس في حاجةٍ إلى معجزة كي يكون نبيًّا ... إنما النبي من حُمِّل رسالة علوية لا ينصرف عن الحياة حتى يؤديها ... ومن فضل «محمدٍ» أنه لم يشأ أن يُقنع الناس بغير ذلك، فقد بلَّغهم رسالته ... واعتمد في إثباتها على الملَكات البشرية المجردة المتحررة!

فلقد جاء في كُتب السيرة: أن المسلمين عطشوا أثناء مسيرهم إلى «غزوة تبوك»، فأمطرتهم السماء فقال بعضهم: إنها معجزة، فصاح «محمدٌ» من فوره: «إنما هي سحابةٌ مارة! ... وأن الشمس كسفت يوم مات ابنه «إبراهيم»، فقال الناس: «إن هذا الكسوف معجزةٌ»، فصاح «محمدٌ»: «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تخسفان لموت أحدٍ ولا لحياته»! ... هذا كلام «محمدٍ» الذي قال الغرب إنه نبيٌّ كاذب! ... فهل يمكن أن يكون هذا جواب نبيٍّ كاذب؟

إنَّ «محمدًا» قد فهم حقيقة النبوة، ووعى معنى الحقيقة العليا، وأدرك أن أكبر معجزةٍ في هذا الكون هي ألا يكون في الكون معجزات، وأن كل شيءٍ يسير طبقًا لنظام دقيق، وإذا

قيل نظام قيل قانون، وإذا قيل قانون قيل عقلٌ مدبِّر، وهذا العقل واحد أحد، تبدو سِمته في إدارة الأجسام غير المحدودة في العِظم، كما تبدو في إدارة الأجسام غير المحدودة في الصغر، ذات اليد العلوية وعين أثرها في كل شيء، يد واحدة لا تتغير، وقانون واحد لا يتغير!

إن «محمدًا» قد تأمَّل الطبيعة كثيرًا أيام عزلته الطويلة في «غار حراء»، وفكَّر مليًّا في نظامها العجيب فكشف عن بصيرته وبصره، فامتلأ قلبُه بالله الواحد، كما اقتنع عقله بوجوده، فجاء دينه دينًا كاملًا، صادقًا في نظر القلب والعقل معًا!

ولئن كان على الأرض نبيٌّ حرَص على أن يجاهر بمحبة العلم ومصادقته، ولم يخشَ دينُه العلم، ولم يضطهد العلماء، فهو «محمدٌ» الذي قال:

«فضل العلم خيرٌ من فضل العبادة» ... «اطلب العلم ولو في الصين» ... وكثيرٌ من الأحاديث التي تُثني على العلم وتحضُّ عليه. ذلك أن مصدر إقناع العلم، ومصدر إقناع «محمدٍ» واحدٌ: الكون وملاحظة ما فيه من إبداعٍ ينمُّ عن عقل مُبدع هائل!

في كتابٍ حديثٍ للعالِم «أينشتين» فصلٌ ذَكر فيه رأيه في الدين فقال: «إنه يعتنق ما يُسميه: الديانة الكونية»، تلك الديانة التي تملأ قلب كل عالِمٍ انقطع للتأمل «ذلك التناسق العجيب بين قوانين الطبيعة وما يخفي من عقلٍ جبار، لو اجتمعت كل أفكار البشر إلى جانبه، لما كوَّنت غير شعاع ضئيل، أقرب القول فيه إنه لا شيء!»

لا ريب عندي أن إحساس «أينشتين» نحو الكون والله، هو عين إحساس «محمدٍ» يوم كان يتحنَّث في «غار حراء»، قبل نزول الوحي! ... إنما الأنبياء والعلماء قلوبٌ واعيةٌ تشعر بجلال الله، ولا يمكن لنبيٍّ أن يكون نبيًّا إلا أن يشعر من تلقاء نفسه بعظمة الخليقة، ويتحرق شوقًا إلى معرفة سرِّها، ولا يزال الشوق بقلبه حتى يكشف له الصانع الأعظم عن بعض نوره، ويُوحي إليه بنشر هذا النور على الإنسانية!

إني كلما تأمَّلت شخصية «محمد» مجردة، ثبتَ إيماني بأن الخصومة المعروفة بين العلم والدين ليس لها في الحقيقة وجود، وأن الدين الحق لا يتعارض والعلم والحق! ... بل إن الدين والعلم شيءٌ واحد، كلاهما يطلب نورَ الله ويريد وجهَه، وكلاهما يعي ويؤمن ويلهج بتناسق الوجود، ووحدة قوانينه، ودلالة وحدة الوجود على وحدة الخالق! ... ولم يظهر نبيٌّ حق ولا عالمٌ حق شعر بغير ذلك. إنما الفارق بين العلم والدين هو في السُّبل التي يسلكها كلٌّ في الدُّنو من الله، ومَن قال إن وسائل العلم ينبغي أن تُماثل وسائل الفن أو وسائل الدين؟

إن الطرائق والسُّبل يجب أن تظل مختلفة مميزة لا يختلط بعضها ببعض، إنما المصدر واحدٌ دائمًا، والغاية واحدة، فما الدين والعلم والفن إلا خيوطٌ ثلاثة كُتِب على بشريتنا القاصرة العمياء أن تتمسَّك بها، لتهتدي إلى ذلك النور الذي لا بدايةَ له ولا نهاية: الله!

نجمُ «أحمد»

وقفَ اليهوديُّ على أحد آطام «يثربَ» ناظرًا إلى السماء، يعلن إلى بني قومه ميلاد النبي في صيحةٍ مدويةٍ: «طلع الليلة نجمُ أحمد!»

عجبًا من العجب! ... أحقًّا لم يرَ ذلك اليهودي نجم «أحمد» قبل تلك الليلة؟ ... يُخيل إليَّ أن الناس في ذلك الزمان كانوا يسيرون مطرقين كالعميان ... إن نجم «أحمد» طالعٌ في كلِّ لحظةٍ يشع نورًا من بداية الكون، لو أن للكون بداية إلى نهاية الزمن، لو أن للزمن نهاية! ... نجم «أحمد» هو الحق، والحق لا يبدأ ولا ينتهي ... ولا يظهر ولا يختفي ... إنه وجودٌ ... !

إذَن ... ما الإسلام؟ وكيف ظهر الإسلام بظهور «محمدٍ»، والمسيحية بظهور «المسيح»، واليهودية بظهور «موسى»؟ ... هنا لزم التفريق بين الحق وثوب الحق ... بين المعنى والأسلوب ... ما الإسلام إلا أسلوبٌ من أساليب الحق، ورداءٌ من أرديته ... كذلك المسيحية، وكذلك اليهودية، وكذلك كل دينٍ من تلك الأديان السماوية التي تتحد في الجوهر وتختلف في المظهر ... وهنا نستطيع أن نُفاضل بين الأساليب، وهنا فقط يجوز لنا أن نُفاخر بالدين الأخير؛ إذ جاء بأسلوب جامع مانع، سهل ممتنع، محكم الوضع، مصقول التراكيب ... فالمفاضلة لا تكون في الجوهر؛ لأنه واحدٌ أحد، إنما المفاضلة في الأثواب!

وهنا يخطر على البال سؤالٌ: هل تجوز المفاضلة بين الأثواب وهي كلها من صُنع الخالق المعصوم، الذي لا ينبغي أن يخطئ، ولا أن يُصحح ما سبق أن صدر عنه ... أو أن جوهر الحق وحده من شأن الله، أما الأسلوب الذي يُعرض به على الناس فهو من شأن الرُّسل والأنبياء؟

قبل الإجابة عن هذا السؤال يجب النظر في قضيةٍ أخرى: هل للطبع والمزاج والخلق الذي ركِّب عليه النبي أو الرسول أثرٌ في أسلوب رسالته؟ ... هل شخصية الرسول تطبع

بخاتمها شكل الدين الذي يدعو إليه؟ ... وهل لظروف العيش التي نشأ عليها النبي دخلٌ في اتخاذ «القالب» الذي أفرغ فيه موضوع النبوة؟

إن أُجِب على كل هذا بالإيجاب، فإن التبِعة في «أسلوب» الأديان تقع بلا مراء على كاهل الأنبياء. والنبي إذَن مسئول عن الطريق الذي اتَّبعه بالإبانة عن «الحق» مسئولية ملقاة على «شخصيته» التي صبغت الشريعة بصبغتها. وعلى قدر المسئولية تكون العظمة، وعلى قدر «الشخصية» ذات الوجود الفعلي تُقاس العبقرية العظمى والمجد الأسمى!

إن صح هذا الكلام، فإني أستطيع القول بأن النبي أو الرسول لا يصل إلى الحق متجردًا عن شخصيته، بل إنه لا يستطيع الدنو من الحق إلا عن طريق شخصيته، كذلك فعل «النبي العربي»، وكذلك فعل «المسيح» و«موسى»، وكذلك كل «نبيٍّ» لا يستطيع أن يرى الحق إلا عن طريق إحساسه وطبعه وعقله ... وهي ملَكات تختلف باختلاف الأشخاص! ... وهنا يبدو سرُّ تباين الأساليب التي جرت عليها الأديان في عرض جوهر الحق على الناس!

ولعل «محمدًا» ﷺ هو أكثر الأنبياء حرصًا على تنبيه الناس في كل مناسبةٍ إلى وجود شخصيته المستقلة؛ فهو لا يفتر يُذكِّرهم أنه بشر خاضع للقوانين التي يخضع لها البشر، وأنه لا يتصل بالله هذا الاتصال الخاص — الذي قصر على الرسُل — إلا إذ يشاء الله، وأنه في كثيرٍ من حياته الخاصة أو العامة — حيث لا وحي يهديه السبيل — يتصرف كما يتصرَّف البشر ... وهكذا فعل في معارك «بدر» و«أُحد» و«الخندق»؛ إذ كان يستمع إلى مشورة أصحاب الرأي من رجاله! ... وهكذا فعل إذ لم يُخفِ ميله إلى الطِّيب والنساء، بل إنه أعلن ذلك الميل لعلمه أن الميول من مميزات الطبع التي ركَّبها الخالق في البشر ... والنبي الحق أَجَلُّ من أن يكتم مزاجًا أو طبعًا، وهو يعرف أن المزاج والطبع من مقومات الشخصية!

وهنا تبدو حكمة الإسلام ظاهرة بين سائر الأديان؛ فهو دين بسيط فطريٌّ لم تدخله صناعة، كل شيء فيه صادق خالص صافٍ، ليس فيه إنكارٌ لقوانين الطبيعة، بل فيه مسايرة حكيمة ومصاحبة رشيدة لكل ما فرضه النظام العلوي على البشر، من حيث تركيبهم المادي والمعنوي؛ ذلك أن أسلوب «محمدٍ» ﷺ في إدراك «الحق» كان أسلوبًا مستقيمًا؛ فهو قد أدرك أن «معنى» الحق إنما هو «السبب» الذي يصدر عنه «الناموس الأكبر»، وأن روح الوجود هو «النظام»؛ إذ لا يُتصوَّر أن تكون «الفوضى» من عناصر الخليقة! ... بل إن «الفوضى» إذا حلَّت في نظام الوجود انقلبت نظامًا؛ لأنه لا وجود بلا نظام، بل إن كلمة «الفوضى» لا محل لها إلا في أدمغة البشر، يُعبِّرون بها عن كل ما يُحدث شيئًا من الخلل في ترتيب حياتهم الضيقة المحدودة!

أما الكون غير المتناهي فلا يعرف غير النظام، الذي فُرض على الإنسان والحيوان والجماد! ... هل من سبيلٍ إلى مخالفته؟ ... إن مخالفة النظام الطبيعي للإنسان والأشياء مخالفة لله، وكل دينٍ يقف في وجه النُّظم الطبيعية لا يمكن أن يكون من عند الله؛ لأن الله لا يناقض نفسه!

كل هذا فهمه «محمدٌ» ﷺ ووعاه ببصيرته النورانية النافذة، فجاء أسلوب الإسلام في الإفصاح عن «الحق» واضحًا جليًّا، لا يأمر بالرهبنة، ولا بالفرار من الدنيا، ولا بتعذيب الجسد من أجل الله؛ لأن الله لا يأمر بتحطيم ما بناه!

إنَّما يريد الله أن تعيش الأحياء طبقًا لقوانين الحياة التي وضعها لها، وأن تُجاهد في سبيل هذه الحياة، وأن تتغلب على عناصر الفناء بما هيأه لها من مناعة طبيعية، أو مناعة اكتسابية، والدين هو أداة المناعة الاكتسابية لمكافحة عناصر الفناء المادية والأدبية!

فلئن كانت غاية الدين عند البشر توفير أسباب الحياة الصحيحة، والدنيا الصحيحة خير تمهيدٍ لآخرة صحيحة؛ فإن الإسلام بلا مِراء هو دين الصحة في كل شيء؛ فهو ذو صوت جهير في الدعوة إلى صحة الجسم، وصحة العقل، وصحة العقيدة!

ولئن كان ماضي هذا الدين السليم مجيدًا؛ فإن مستقبله، ولا ريب، يسير بازدهار يعمُّ الأرض، لو استطعنا أن نُجرده من سفسطة الجامدين، وننقِّيه من ثرثرة المتنطعين، وننقذه من احتكار الجهَّال المحترفين، وأن نردَّه إلى مبادئه البسيطة الصافية التي لا تصدم تقدُّمًا، ولا تعارض التطور الطبيعي للأذهان والأشياء!

وقتئذٍ فقط نستطيع أن نغزو به كل النفوس وكل العقول؛ فإن الدين «المثالي» هو الدين البسيط، وهل أبسط من الإسلام شريعة، وهي لا تعرف «رجال دينٍ»؟ ... ولا تقرُّ وجود أناسٍ يجعلون من هداية الناس حرفة يأكلون منها ويكنزون؟ ... ومن «الدين» مهنة تُدرُّ الرزق وتعطي متاع «الدنيا»؟ ... إن أولئك الذين يجعلون «الدين» سُلمًا «للدنيا» — لا «الدنيا» سُلمًا «للدين»— قد طردهم الإسلام بعيدًا عن حظيرته، وجعل الدين سَمحًا باسمًا باسطًا ذراعَيه لكل الناس لا احتراف فيه ولا احتكار!

نعم، إن حاجة البشر كافة قد أصبحت متجهة إلى هذا النمير العلوي الصافي من المبادئ البسيطة المستقيمة، التي لا خداع فيها ولا تمويه، ولا تناقض ولا تشويه، ولا إخلال ولا تدخل في قوانين الطبيعة الأساسية التي وضعها المُبدع الأعظم! ... إذا تم ذلك للإسلام في هذا العصر؛ فلسوف يأتي يومٌ يقف فيه أهل الأرض أجمعون — من كل جنسٍ ولون، على آطام بلادهم — يصيحون في كل حولٍ صيحة ذلك اليهودي: لقد طلع نجمُ «أحمدَ» ...

سرُّ العظمة

ينبغي لَمن أراد أن يَعلم سرَّ عظمة «محمدٍ» ﷺ أن يتخيل رجلًا وحيدًا فقيرًا تمكَّنت من قلبه عقيدة، فنظر حوله فإذا الناس كلهم في جانبٍ وإذا هو بمفرده في جانبٍ ... هو وحده الذي يدين بدينٍ جديدٍ بينما الدنيا كلها؛ أهله وعشيرته وبلده وأُمته، والفرس والروم والهند والصين، وكل شعوب الأرض لا يرون ما يرى، ولا يشعرون له بوجودٍ ... هذا موقف النبي ﷺ، وهذا موقف العالم.

رجلٌ عاطلٌ من كل قوةٍ وسلاح، إلا مضاء العزيمة وصلابة الإيمان، أمام عالَمٍ تدعمه قوة العدد والعدة، وتؤازره حرارةُ عقيدةٍ قديمةٍ شبَّ عليها وورثها عن أسلافه، واتخَذت لها في قرارة نفسه وأعماق تاريخه جذورًا ليس من السهل على أول قادم اقتلاعها. فالنبي هو ذلك القادم الذي يريد أن يقتلع تلك الجذور، ويضع مكانها غرسًا جديدًا، والعالم القديم هو ذلك السادن القوي لتلك الشجرة العتيدة، يَذُود عنها، وتأبى كرامته أن يُفرِّط في ورقةٍ منها!

إذَن هنالك «مبارزةٌ» بين فردٍ أعزل، وبين عصرٍ بأَسره يُزمجر غضبًا؛ عصر زاخر بأسلحته ورجاله، وعقائده وفقهائه وعلمائه ومشاهيره، وتقاليده وماضيه، ومجده وتاريخه ... هذه المبارزة الهائلة العجيبة، مَن يستطيع أن يُقدِم عليها غير نبي؟! ... على أن المعجزة بعد ذلك ليست في مجرد التحدي، ورمي «القفاز» وارتفاع ذلك الصوت الضعيف على شاطئ ذلك البحر الطامي العجاج: «أن اترك أيها العالَم دينك القديم واتبعني!» ذلك الصوت الذي لا جواب عليه إلا سخرية طويلة وقهقهة عريضة.

وليست المعجزة كذلك في مجرد شفاء الأصم وإبراء الأعمى، وإنما المعجزة حقيقة هي أن يَخرج مثل هذا الرجل الوحيد الأعزل من هذه المعركة المخيفة ظافرًا منتصرًا، فإذا هذا

العالم العتيد كله يجثو عند قدميه منكس الأسلحة، وقد انقلبت سخريته خشوعًا طويلًا، وقهقهته صلاة عميقة!

كيف ربِح هذا الرجل الموقعة؟ ... ما وسائله؟ ... هل كانت له خططٌ وأساليبُ وقوةٌ من شخصه مكَّنته من النصر ... أو أن الله هو الذي نصره، دون أن يكون لشخصية النبي دخلٌ في الانتصار؟ ... عقيدتي دائمًا أن شخصية النبي لها أثرٌ كبير!

وهنا معنى الاصطفاء؛ فالله يختار من بين البشر عظيمًا، له كاهلٌ قويٌّ يحتمل عبء الرسالة ... ويوحِي إليه بالعقيدة ثم يتركه يجاهد في سبيلها، فالنبي ليس آلة تُحركها يدُ الله في كل خطوة، إنما هو رسولٌ عُهِد إليه تبليغ دين، والعمل على إذاعته بين الناس بالوسائل التي يراها الرسول كفيلة ببلوغ الغاية، فالله لا يريد نشر الأديان للبشر إلا بالوسائل البشرية ... إنه لا يتدخل بقدرته العلوية، في فرض الدين فرضًا على الناس كما تُفرض عليهم الزوابع والأمطار، ولكنه يحب دائمًا أن يخلي بين «الدين» وبين «الناس»، حتى يتغلغل الدين من تلقاءِ نفسه في نفوسهم بجمالِ نوره وحده، ولكن أعين الناس لا ترى كل الأحيان؛ فهم يعيشون في أعماق ماضيهم كالأسماك العمياء في أغوار المحيطات!

هنا تبدأ متاعب النبي، وهنا تظهر المعجزة الحقيقية، وهي إبراء الأعمى، لا أعمى واحد، ولكن ملايين العميان، فهو الذي يفتح أبصارهم على نورٍ طالما جحدوا وجوده؛ نور الدين الجديد الذي أتى به.

وهنا ينبغي التساؤل: كيف استطاع النبي أن يُرِي الناس ما يرى، وأن يُقنعهم بما جاء به؟

الجواب بسيطٌ:

حياة النبي وخُلقه! ... إن الناس لا تقتنع بالكلام وحده، وإنما يؤثِّر فيهم الفعل والمَثل ... إن الناس يومَ أيقنوا أن «محمدًا» لا يسعى إلى غنًى ولا إلى مُلك، وإنه يريد أن يبقى فقيرًا يشبع يومًا ويجوع أيامًا، وإن كل تلك المخاطر التي يتعرَّض لها في كل خطوة، وإن كل ذلك الهوان الذي يناله من سفهاء القوم وأكابرهم، وإن كل ذلك الجهاد الذي ملأ به حياته بأكملها — إنما هو سبيل «العقيدة» التي يقول لهم عنها — منذ ذلك اليوم الذي اجتمع فيه كُبراء أمته، وعرضوا عليه ثروتهم، ووعدوه أن يُنصِّبوه عليهم ملِكًا، على شرط أن يتركهم على دين آبائهم، فرفض المال والمجد والسلطان، وأبى إلا شيئًا واحدًا: «أن يؤمنوا معه بفكرته»، عند ذاك أدرك أولئك القوم جميعًا أن الأمر جِد لا هزل، وأنهم أمام رجل لا ككل الرجال، وأنه الآدمي الذي لا يغريه في الحياة شيء، ولا يعيش إلا من أجل «فكرةٍ» لا تُقوَّم بمتاعٍ من أمتعة هذه الدنيا الرخيصة، و«جمالٍ» يُضحَّى في سبيله بخير ما في الحياة!

أمام هذا الرجل أخذ الناس يفكرون مليًّا، وثبت لَمن كان قد ارتاب في أمره أن مِثله لا يمكن على الأقل أن يكون أفَّاكًا يعمل لمغنم، إنما هو رجل صادق مخلص، لا مطمع له من تلك المطامع التي يسعى إليها الناس في هذه الدار! … عند ذاك بدأ كثير من الناس يجلسون إليه ويصغون إلى كلامه … فوسيلة «النبي» الأولى وخطوته التي نزل بها الميدان هما إقناع هذا الخضَم الصاخب من الخلق أنه مجرد عن الغايات الدنيوية، وهنا كانت قوته؛ فإن أمضى سلاحٍ في يد رجل يريد أن يُقارع البشر، هو أن يواجه البشر بيد خالية من مطامع البشر.

ولكن هذا لا يكفي، فالناس قد تقتنع بأمانة النبي وقد تستمع إلى ما يقول، ولكنها لا تستطيع أن تنبذ في يوم وليلة كل ماضيها لتؤمن بهذا الكلام الجديد … إن صَدر الجماهير كصدرِ المحيط العميق ذي الماء الكثيف، يدفع إلى سطحه كل جسم غريب، ولا ينفذ إلى أعماقه إلا شيء ذو وزن، بعد زمنٍ وجهدٍ … وإن الناس لشديدة الحرص على ما تسميه كنوز تراثها وتقاليدها … فما أدراهم أن هذا الكلام الجميل — الذي جاء به هذا النبي، ذو الحديث الطلي — ليس إلا بضاعة زائفة ووهمًا خلابًا، لعب بلُبِّ هذا الرجل الأمين المسكين فريسة مرضٍ ومس؟ … ما هو الأجدر بهم عندئذٍ؛ يطلبون الطب حتى يبرأ، أو يلقون بكنوزهم ويتبعون حلمه ومسَّه؟ … لقد وضعت المسألة إذَن وضعًا آخر، واتخذت الحرب ميدانًا جديدًا … ماذا يصنع النبي؟ … لا بدَّ له من أن يُبدد ضباب الشك المخيم على الأذهان، حتى يصل إليها نور الدين … هنا صفتان لازمتان الصبر والمثابرة؛ فإن العاقبة في الحرب لَمن صبر وصابرَ وثابر! … وإن أمامه لخِصمًا جديدًا، وهو الشك الذي يقوم الآن في رءوس الناس، كان حقيقة رجلًا عظيمًا فليقتل هذا الشك بمفرده، وما هو بشكِّ رجل واحد، إنما هو شكُّ أمة طامية!

ولقد جاهد الرسول فعلًا في كل لحظةٍ من لحظات حياته، إلى أن استطاع ذات يوم أن ينقل العقيدة التي في قلبه حارَّة قوية، إلى قلوب الناس جميعًا، وهنا كان النصر الأخير وتمَّت المعجزة، وتمكَّن هذا الرجل الواحد أن يضع العالم في قبضته ويُخضعه لفكرته، ويطبعه إلى أبد الآبدين بخاتمه، ويُدخل إلى صدره أشعة نور جديد!

المرأة في شباب النبي

لم يروِ لنا التاريخ أن «النبي العربي» عرَف امرأة، أو تحرك قلبه لامرأة، قبل «خديجة»، فلقد كانت حياته، حتى الخامسة والعشرين، حياة الشاب الهادئ البعيد عن النساء العاكف على عمله، يرعى الغنم في الفلاة ويلجأ إلى التأمل العميق؛ فلم يكن للهو والمرأة حتى ذلك الوقت مكانٌ من اهتمامه أو تفكيره ... كل ما ورد مع ذلك من أخبار لهوِ الشباب أنه قال ذات ليلةٍ لفتًى من «قريش» كان معه بأعلى «مكة» يرعيان غنم أهلهما: «أبصر لي غنمي هذه الليلة، حتى أسمر بمكة كما يسمر الفتيان!» ثم خرج، فلما جاء أدنى دار من دور «مكة» سمع غناءً وصوت دفوف ومزامير، فجلس يلهو بذلك الصوت حتى غلبه النعاس فنام مكانه ولم يوقظه إلا مسُّ الشمس، ورجع! ... فسأله صاحبه: «ماذا فعلت؟» فأخبره بما كان! ... وكان هذا شأنه في كل ليلةٍ من مثل هذه الليالي!

كانت العفة المطلقة إذَن هي صفته الغالبة وقتئذٍ، وكان الزهد والحلم والصبر والتواضع مما ميَّزه عن بقية الشبان، ومما جعل قومه يُسمونه «الأمين».

ما الذي كان يشغل رأس الشاب «محمد» في تلك السن، ما دام اللهو والمرأة لا محل لهما عنده؟ ... أتراه كان يحس في قرارة نفسه بمصيره العظيم؟ ... نعم، إن هذا الفتى قد شبَّ في عصرٍ شاعت في جوِّه كهرباء غريبة، مشحونة بالأساطير والتنبؤات، عن قرب ظهور نبيٍّ من العرب اسمه «محمد» وكان مصدر هذا النبأ اليهود — أهل الكتاب — والكهان، حتى لقد سارع مَن بلَغه ذلك من العرب، فسمَّى ولده «محمدًا» طمعًا في النبوة! ... فهذا الجو الذي نشأ فيه الصبي «محمدٌ» والاسم الذي حمله، والشائعات التي أحاطت به عن ذلك النبي الموعود، كل هذا كان كافيًا من غير شكٍّ في أن يبعثه على التفكير في هذا الأمر منذ الصغر ولعله طمع — هو أيضًا — في أن يكون هو النبي الجديد! ... ولعل هذه الفكرة تملَّكت كيانه وطغت على كل شبابه؛ فلم تتسع حياته في ذلك الوقت لشيء آخر!

لقد كان هذا غالبًا شأن أغلب الذين انتظرتهم أقدار عِظام، وتملكتهم منذ شبابهم مُثل عُليا وأحلام، عمَّرت كل أعوام شبابهم، وحلَّت فيها محل اللهو والمرح! … إن كل شابٍّ يعيش مع شبح امرأة جميلة، إلا الشاب الموعود برسالة عظمى، فهو يعيش دائمًا مع شبح المجد المنتظَر!

لعل هذا يفسر لنا بعض الشيء حياة الفتى «محمد»، حتى الوقت الذي لقيَ فيه أول امرأة أحبها: «خديجة»!

وإنَّا لو تأملنا الأمر مليًّا لتبيَّن لنا أنه لم يكن البادئ بالحب! … كل شيء يدل على أن الزواج لم يخطر له على بال، والزوجة والمرأة آخر ما كان يفكر فيهما وقتئذٍ؛ فلقد كان يسير في طريق تأملاته الداخلية وأحلامه العليا، وكأنه لا يمشي على هذه الأرض إلى أن لَحظَته «خديجة» ذات يوم، ولمست كتفه فأفاق قليلًا، ورفع عينيه إليها … نعم! … إنها هي التي كانت ترقبه منذ زمن … وإن لشعورها نحوه جذورًا ممتدة في أغوار قلبها، امتداد عرق الذهب في المنجم العميق!

ما مبدأ هذا الشعور؟ … لعله ذلك اليوم الذي احتفلت فيه نساء قريشٍ بعِيدٍ لهن، وكانت «خديجة» بينهن، عند وثنٍ من الأوثان، فبرز لهن أحد اليهود مناديًا بأعلى صوته:

«يا نساء تيماء! … إنه سيكون في بلدكن نبيٌّ يقال له «محمد» فأيما امرأةٍ استطاعت أن تكون له زوجًا فلتفعل!»

فقذفته النساء بالحجارة، وقبَّحنه، وأغلظن له، إلا «خديجة» فإنها أطرقَت، وكأن شيئًا وقع في نفسها من كلامه، ثم حدث بعد ذلك أن «خديجة» — وقد كان ذات مال كثير وتجارة تبعث بها إلى الشام، وتستأجر من أجلها الرجال — أرسلت الشاب «محمدًا» في تجارتها وضاعفت له الأجر، فعاد رابحًا ضِعف ما كانت تربح التجارة على يدِ غيره؛ لأمانته واجتهاده … وقصَّ عليها عندئذٍ غلامها «ميسرة» — وقد رافق «محمدًا» في رحلته — ما رآه من الشاب المستقيم الأمين!

ولعله أخبرها فيما أخبر أن أحد الرهبان قابله، وأنهما تذاكرا مليًّا في أمر النبي الموعود المسمَّى «محمدًا»! … كل هذا مع ما تشبَّعت به الأذهان من أساطير النبوة المنتظَرة قد ألقى في رُوع «خديجة» أنها أمام شابٍّ لا يبعد أن يكون هو النبي الموعود! … فإذا أضفنا إلى كل هذا أن «محمدًا» كان فتًى في الخامسة والعشرين كريم الخلق جميل المنظر … وأن «خديجة» كانت امرأة في الأربعين أدركنا أن مثلها كان لا بدَّ له أن يحب مثله! … وهل يمكن أن نسمِّي هذا الشعور باسمٍ آخر غير «الحب» … ذلك الذي يدفع امرأة ذات شرف

وثروة أن تبدأ هي الخطوة الأولى نحو فتًى فقير يتيم؟ ... هي التي قد تَقدَّم إليها أكرم رجال قريش نسبًا وأعظمهم شرفًا وأكثرهم مالًا، طلبوها وبذلوا الأموال، فلم تلتفت إليهم وأرسلت تابعتها «نفيسة» في خفاءٍ إلى الشاب «محمد» تعرِض عليها يدها!

منبع الحب إذَن كان قلب «خديجة»! ... ولقد كان هذا الحب ساميًا قويًّا عظيمًا فاستطاع أن يفتح قلب «محمدٍ»، وأن يملأه كل تلك الأعوام التي عاشتها «خديجة»، بل إن هذا الحب لم ينطفئ بموت «خديجة»، ولقد ظل مكانها من قلبه قائمًا دائمًا، لم تستطع قط امرأةٌ أن تزاحمها فيه! ... هذا هو حب «محمد» الأول! ... وتلك ناحيةٌ من نواحي الفضل المجهول لم يذكرها الناس كثيرًا لـ «خديجة» بما هي أهله من التكريم والتمجيد: إنها أول امرأة علَّمت محمدًا «الحب»!

جوهر الدين

كان «عمر بن الخطاب» شديدًا في مراعاة أحكام الله، حريصًا على إقرار الأمن والأمانة بين الناس؛ فبينما هو يسير يومًا في أحد الأسواق إذ به يرى رجلًا يلتقط من الأرض لوزة، ويرفعها في يده، ويجري بها في الطريق صائحًا: مَن ضاعت له لوزة؟!

فما كان من عمر إلا أن انتهره قائلًا: كُلْها يا صاحب الورع الكاذب!

في الناس أيضًا مَن يلتقط لفظة في كلام كاتب، فيرفعها منعزلة عن نواياه، مستقلة عن مراميه، لينذب ويولول صائحًا: «ضاع الدين! ... ضاع الدين! ...»

مثل هذا المتظاهر بالورع لا يفهم من الدين إلا ألفاظًا، ولا يدرك بأُفقه المحدود أن الدين لا يُخشى عليه من لفظة، كما أن الأمانة لا يُخشى عليها من لوزة! ... وأن الكتَّاب والشعراء في كل العصور ينتفعون بكل ما في الكتب القديمة من صور، دون أن يرتاب في عقائدهم القارئ الحصيف!

ومَن ذا الذي يستطيع أن يرمي بالوثنية شاعرًا، يُناجي آلهة الشِّعر أو يُرى في هتافه — بإله الحرب، أو إله البحر — شِركًا بالله الواحد الأحد الذي لا شريك له ... وإنما وهي صورٌ من الآداب القديمة يستعيرها الشعراء والكتَّاب في أساليبهم، دون أن يخطر في بالهم أن من الناس مَن يضيق عقله فيخلط بين الصورة الشعرية والعقيدة الدينية!

ولكني مع ذلك أحيي كل مَن يعنيه جوهر الدين، وأحثُّ الناس على أن يفخروا بالدين؛ فإني دائمًا أومن أن الدين هو الذي رفع الإنسان فوق مرتبة الكائنات جميعًا!

فالذكاء ليس بالمزية التي اختص بها الإنسان وحده، والنظام الإداري المحكم أو الاقتصادي الكامل ليس وقفًا على المجتمع البشري؛ فإن مجتمع النحل لأدقُّ منا نظامًا في

الإدارة، وإن مجتمع النمل لأتمُّ منا إحكامًا في الاقتصاد! ... ولكن الذي يميزنا — نحن معاشرَ البشر — هو «الإيمان»! ... ما من مجتمعٍ غير مجتمعنا البشري اهتدى إلى ذلك الإيمان الديني؛ لأن حياة الروح لم يلِج بعدُ بابها غيرُ الإنسان!

إذا أهدرت دينك أيها الإنسان؛ فاعلم أنك قد أهدرت آدميتك، وإذا خلعتَ رداءك الديني فقد خلعت رداءك البشري، وانقلبتَ دابة تسعى إلى رزقها في الأرض، ولا تقوى على التطلع إلى السماء! ... الدين هو الذي يرفع بصرك إلى أعلى أيها الإنسان! ... إلى أعلى من أقدامك وأرضك وطعامك وشرابك! ... وإذا استطعت أن ترفع بصرك إلى أعلى من فمك فأنت أرقى من الحيوان! ... وإذا ارتفعتَ إلى حيث تدرك وجود «الله» فأنت سيد الكائنات!

كلُّ شيءٍ قد يعرفه الحيوان إلا «الدين» ... لو عرفَت جماعةٌ من الحيوان يومًا معنى الدين لأصبحت في الحال بشرًا ساجدين ... ما من شيء نفخر به نحن الآدميين إلا أننا نسجُد من أجل فكرةٍ عليا! ... ونتحمس من أجل معنًى مقدسٍ ... وتعرف قلوبنا ما هو «الإيمان»!

في الأدب والفن والثقافة

الخلق

لا ريب أن العقلية المصرية قد تغيَّرت اليوم بعض التغير! ... ولكن كيف تغيرت؟ هذا هو موضوع الكلام. إن شئون الفكر في «مصر» حتى قُبيل ظهور الجيل الموجود كانت مقصورة على المحاكاة والتقليد، محاكاة التفكير العربي وتقليده! ... كنا في شبه إغماء، لا شعور لنا بالذات ... لا نرى أنفسنا، ولكن نرى العرب الغابرين! ... لا نُحس بوجودنا ... ولكن نُحس بوجودهم هُم! ... لم تكن كلمة «أنا» معروفة للعقل المصري، ولم تكن فكرة الشخصية المصرية قد وُلِدت بعد!

وجاء الجيل الجديد فإذا هو أمام روحٍ جديد، وأمام عملٍ جديد، لم يَعُد الأدب مجرد تقليدٍ أو مجرد استمرارٍ للأدب العربي القديم في روحه وشكله، وإنما هو إبداع وخَلق لم يعرفهما السلف، وبدت الذاتية المصرية واضحة، لا في روح الكتابة وحدها، بل في الأسلوب واللغة أيضًا ... لقد بدأنا نعِي ونُحس وجودنا.

وأول مظاهر الوعي شخصية الأسلوب، واستقلال طريقة التعبير، وما يتبعها من ألفاظ وأخيلة ... كل هذا أصبح اليوم جليًّا معروفًا، ولم أكتب هذه الصفحات من أجله، فحاجة مصر إلى الاستقلال الفكري أمرٌ لا نزاعَ اليوم فيه، ولقد مضى الكلام في هذا، إنما الأمر الذي يحتاج إلى كلامٍ هو معرفة مميزات الفكر المصري: معرفة أنفسنا حتى تتبيَّن لجيلنا مهمتُه ... لقد فهمنا مميزات الأسلوب والشكل، وما فهمنا بعدُ جيدًا مميزات النفس والروح!

ما هي مميزات العقلية المصرية في الماضي والحاضر والمستقبل؟ ... وما روح مصر؟ ... ما مصر؟ ... إن اختلاطنا بالروح العربية هذا الاختلاط كاد يُنسينا أن لنا روحًا خاصة، تنبض نبضاتٍ ضعيفة تحت ثِقَل تلك الروح الأخرى الغالبة، وأن أول واجبٍ علينا هو استخراج أحد العنصرَين من الآخر حتى إذا ما تم تمييز الرُّوحَين — إحداهما من الأخرى —

كان لنا أن نأخذ أحسن ما عندهما، وكان لنا أن نقول للناس: «ها نحن أولاء قد أنرنا لكم الطريق إلى أنفسكم؛ فسيروا!»

لا بدَّ لنا إذَن أن نعرف مَن المصري، ومَن العربي … هذا السؤال ألقيته على نفسي منذ سنوات معدودة؛ إذ كنت أطيل النظر في الفنَّينِ المصري والإغريقي … وأذكر أني أثرت هذه المسألة أمام بعض الباحثين، وأذكر أني لخَّصتُ الفرق بين العقليتَين بمَثل واحد في فن النحت سائلًا: ما بال تماثيل الآدميين عند المصريين مستورة الأجساد، وعند الإغريق عارية الأجساد؟ … هذه الملاحظة الصغيرة تطوي تحتها الفرق كله، كل شيءٍ في مصر خفي، كالروح، وكل شيءٍ عند الإغريق جلي، كالمنطق! … في مصر الروح والنفس، وفي اليونان المادة والعقل! … نظرةٌ أخرى في أسلوب النحت تدعم هذا الكلام … إن المثَّال المصري لا يعنيه جمال الجسد ولا جمال الطبيعة من حيث هي شكل ظاهر، إنما تعنيه الفكرة. إنه يستنطق الحجر كلامًا وأفكارًا وعقائد! … على أنه يشعر مع ذلك بالتناسق الداخلي! … يشعر بالقوانين المستترة التي تسيطر على الأشكال! … يشعر بالهندسة غير المنظورة التي تربط كلَّ شيءٍ بكلِّ شيء! … يشعر بالكل في الجزء وبالجزء في الكل، وتلك أولى علامات الوعي في الخلق والبناء!

هذا كله يُحسه الفنان المصري، لأن له بصيرة غريزية أو مدربة تَنفذ إلى ما وراء الأشكال الظاهرة، لتُحيط بقوانينها المستترة! … فنان عجيب لا يصرفه الجمال الظاهر للأشياء عن الجمال الباطن! … إنه يريد أن يصور رُوح الأشكال لا أجسامها، وما رُوح الشكل إلا القانون العام الأعلى المستتر خلفه! … إن ولَع المصريين بالقوانين الخفية لشيءٌ يبلغ حدَّ المرض، مرضٌ إلهي، لو أن الآلهة تمرض لكان هذا مرضها؛ فرط البحث عن القانون!

كلُّ شيء في مصر إلهي؛ لأن «مصر» التي منحتها الطبيعة الخير واليسر وسهولة العيش، وكفتها مشقة الجهاد في سبيل المادة استقلَّت منذ الأزل تتأمل ما وراء المادة … حظُّها في هذا حظ «الهند»: أُمة كثيرة الخير دانية القطوف، لا حاجة بها إلى الكفاح، ولا عمل لها إلا استمرار ترف الحكمة العليا … انقطعت هي أيضًا من قديمٍ تحت أشجارها المقدسة تبحث عمَّا وراء الحياة.

مصر والهند حضارتان قامتا على الرُّوح؛ لأنهما قد شبعتا من المادة، والإغريق على النقيض، أمةٌ لم تشبع من المادة … أمةٌ نشأت في العُسر والفاقة … أرضها لا تدِرُّ من الخير إلا قليلًا … كان لزامًا عليها الكفاح في سبيل العيش، وكان حتمًا عليها الجري وراء

المادة ... حربٌ تلو حرب، وفتحٌ بعد الفتح، وضربٌ في مشارق الأرض ومغاربها، على هذا النحو لم يكن للإغريق ذلك الضمير المطمئن، ولا ذلك الإيمان بالأرض الذي يوحي بالتفكير فيما وراء الأرض والحياة! ... إن عاطفة الاستقرار والإيمان عند المصريين ممزوجةٌ بالدم؛ لأن المصريين نزلوا من بطن الأزل إلى أرض مصر، لا يُعرف لهم نسبٌ آخر على وجه التحقيق، واختلاف العلماء في أمر أصلهم لم ينتهِ بعد، وفي كل يومٍ يبدو دليلٌ على أن العُمران والاستقرار وُجِدا في مصر قبل التاريخ المعروف. ولقد ظهرت الحضارة المصرية في التاريخ تامة كاملة دفعة واحدة كما يظهر قرص الشمس في الأفق عند الشروق! ... ولقد قال «سولون»: إن الكهنة المصريين يعنون العناية كلها بذكريات تلك القارة العظيمة ذات المدنيَّة الزاهرة التي ابتلعها المحيط قبل مبدأ التاريخ؛ «قارة الأتلانتيد»، أتُرى كانت الحضارة المصرية استمرارًا لتلك المدنية المندثرة؟ ... لم يقم دليلٌ على كل فرض. «مصر» أمة مستقرة مؤمنة، زهَّدَها عمرها الطويل، وخيرها الكثير، في مباذل الحياة، وهذا الزهد والتفكير فيما وراء الحياة ظهر أثرهما على وجه الفن المصري، ولا شيء يدل على عواطف أمة وعلى عقليتها مثل فنِّها؛ فلقد طالعَ العالم الحديث على وجه الفن المصري الصرامة والجِد والعمق، ولا أكاد أفتح كتابًا في الفن المصري حتى أجد كلمة «الصرامة» نعتًا من نعوت هذا الفن، ولا أفتح كتابًا في الفن الإغريقي إلا وجدت كلمة «الحياة» وكلمة «الإنسانية» من نعوت هذا الفن! ... نعم، الحياة هي كل شيءٍ عند الإغريق، قد يدفعهم حب البحث إلى لمس حدود الحياة الأخرى؛ فيلمسونها بالعقل والمنطق لا بالقلب والروح! فلسفتهم فلسفة العشق والمنطق والحياة! ... فلسفة الحركة لا فلسفة السكون!

عند «مصر» و«الهند» السكون، وعند «الإغريق» الحركة. قرأتُ حديثًا «المقبرة البحرية» لـ «بول فاليري»، وهو المتصل اتصالًا مباشرًا بالفلسفة اليونانية؛ فإذا هو يشير في قصيدةٍ إلى الحركة والسكون، وإذا الحركة عنده من خصائص العدم الخالد غير الواعي، وهو يعارض «زينون» الأليباتي في إنكاره للحركة، ويتغنَّى في آخر القصيدة بانتصار الحركة، أي الحياة على قِصَرها وفنائها، فهو في ذلك لم يخرج عن يونانيته المكتسبة، ولم يفهم في رأيي روح «مصر و«الهند»! ... ولم يشرف على ذلك العالم الخالد غير الواعي؛ فإن دون هذا الإشراف والاتصال التجرد التام من كل عقلٍ آدميٍّ أو منطقٍ بشري! ... هذه هي الصعوبة في فهم مصر و«الهند»، وهذا ما جعل الفن المصري سرًّا مغلقًا حتى أوائل هذا القرن، وما صرف الناس إلى دراسة اليونان وحدها، فهي واضحة المعنى يسيرة المنال؛ لأنها لزمت شاطئ الحياة!

حظُّ «الإغريق» في كل هذا حظُّ العرب أيضًا، أمة نشأت في فقرٍ لم تعرفه أمة غيرها ... صحراء قفراء ... قليلٌ من الماء يثير الحرب والدماء ... جهاد وكفاح لا ينقطعان في سبيل العيش والحياة ... أُمة لاقت الحرمان وجهًا لوجه، وما عرفت طيِّب الثمار وجري الأنهار ورغد العيش ومعنى اللذة إلا في السِّيَر والأخبار ... كان حتمًا عليها ألَّا تُحس المثل الأعلى في غير الحياة الهنيئة، والجنَّات الخضراء، والماء الجاري، وألوان النعيم واللذائذ التي لا تنضب ولا تنتهي! ... أُمة بأَسرها حلمَت بلذة الحياة ولذة الشبع، فأعطاها ربها اللذة ومنحها الشبع! ... كل تفكير العرب وكل فن العرب في لذة الحس والمادة، لذة سريعة منهومة مختطفة اختطافًا؛ لأن كل شيءٍ عند العرب سرعة ونهب واختطاف!

عند الإغريق الحركة، أي الحياة، وعند العرب السرعة، اللذة ... لم تفتح أُمة العالم بأسرع مما فعلت العرب، ومرَّ العرب بحضاراتٍ مختلفة، فاختطفوا من أطايبها اختطافًا ركضًا على ظهور الجياد ... كل شيءٍ قد يحسونه إلا عاطفة الاستقرار ... وكيف يعرفون الاستقرار وليس لهم أرضٌ ولا ماضٍ ولا عُمران؟ ... دولة أنشأتها الظروف ولم تُنشِئها الأرض، وحيث لا أرض فلا استقرار، وحيث لا استقرار فلا تأمُّل، وحيث لا تأمُّل فلا «ميتولوجيا» ولا خيال واسعًا ولا تفكير عميقًا، ولا إحساس بالبناء! ... لهذا السبب لم تعرف العرب البناء، سواء في العمارة أو في الأدب أو في النقد ... الأسلوب العربي في العمارة من أوهَى أساليب العمارة التي عرفها تاريخ الفن، وإذا عاش لليوم فإنما يعيش بالزخرف ... فن الزخرف العربي هو الذي أنقذَ العمارة العربية ... إن العمارة العربية — إلا في مصر — ما هي في رأيي سوى زُخرف لا بناء، فلا أعمدة هائلة، ولا جبهة عريضة، ولا وقفة ولا بساطة عظيمة، ولا روعة عميقة، وإنما هي وَشْيٌ كثير وجمال كجمال الحلي المرصع يبهر البصر، ولا فِكر خلفه!

أما فن الزخرف العربي فهو في الحق أجمل وأعجب فنٍّ للزخرف خلده التاريخ ... والزخرف عند العرب وليد ذلك الحلم باللذة والترف. كل شيءٍ عند العرب زخرف. الأدب نثرٌ وشِعرٌ لا يُقوم على البناء، فلا ملاحم ولا قصص ولا تمثيل، إنما هو وَشْيٌ مرصَّع جميل يلذ الحس: «فسيفساء» اللفظ والمعنى، و«أرابيسك» العبارات والجُمل! ... كل مقامة للحريري، كأنها باب الجامع المؤيد؛ تقطيع هندسيٌّ بديع، وتطعيم بالذهب والفضة لا يكاد الإنسان يقف عليه حتى يترنح مأخوذًا بالبهرج الخلاب! ... كذلك الغناء العربي «أرابيسك» صوتي، فلا مجموعة أصواتٍ منسقة البناء كما في «الديترامب» أو «الأوركسترا» الإغريقية، أو كما في «الكورس» الجنائزي المصري، ولا حتى مجرد صوتٍ ينطلق حُرًّا بسيطًا مستقيمًا! ...

وإنما هو صوت محمل بألوان المحسِّنات من تعاريج وانحناءات والتواءات وتقاسيم، كأنها «ستالا كتيتات» غرناطية، لا يكاد يسمعه «القاضي الفاضل» حتى يستخفَّه الطربُ ويضع نعله فوق رأسه. كان هذا في العهد الأول للموسيقى؛ إذ كانت عند جميع الشعوب بسيطة عارية، تخرج من القلب تعبيرًا عمَّا في القلب، أو رمزًا لفكرة من الأفكار! … والموسيقى كالعمارة من الفنون الرمزية لا الفنون الشكلية، ولكن العرب لا يحبون الرموز، ولا طاقة لهم بالفن الرمزي، ولا يريدون إلا التعبير المباشر بغير رموز إلا الصلة المباشرة بالحس، فجعلوا من الموسيقى لذة للأُذن لا أكثر ولا أقل، كما جعلوا العمارة لذة للعين لا أكثر ولا أقل. ولقد حاول «الفارابي» — فيما أذكرُ — التقريب بين الموسيقى العربية والموسيقى الإغريقية، وكان لا بدَّ من الإخفاق لأسباب قد أذكرها بعد!

كذلك التصوير العربي على جماله ودقته ليس إلا مجرد تزيين وزخرف للكتب والمخطوطات، ولم يؤدِّ لغير تلك الغاية «المنياتور الفارسي» … قد يكون للدين دَخلٌ في تأخر النحت والتصوير عند العرب. غير أني أعتقد في براءة الدين؛ فإن العرب كانوا دائمًا ضد الدين كلما وقف الدين دون رغبات طبائعهم، لقد حرَّم الدين الشراب فأحلُّوا هم الشراب في قصور الخلفاء، وما وُصفت الخمر ولا مجالس الخمر في أدب أُمة بأحسن مما وُصفت في الأدب العربي! … لا شيء في الأرض ولا في السماء يستطيع أن يَحُول بينهم وبين اللذة.

أما النحت أو التصوير الكبير فليس في طبيعتهم؛ لأن تلك الفنون تتطلب فيمن يزاولها إحساسًا عميقًا بالتناسق العام مبناه التأمل الطويل، والوعي الداخلي للكل في الجزء، وللجزء في الكل، وليس هذا عند العرب؛ فهم لا يرون إلا الجزء المنفصل، وهم يستمتعون بكل جزءٍ على انفرادٍ … لا حاجة لهم بالبناء الكامل المتسق في الأدب؛ لأنهم لا يحتاجون إلا للذة الجزء واللحظة … قليلٌ من الكتب العربية في الأدب يقوم على موضوع واحد متصل، إنما أكثر الكتب «كشاكيل» في شتى الموضوعات، تأخذ من كل شيء بطرف سريع؛ من حكمة وأخلاق ودين ولهو وشعر ونثر ومأكل ومشرب وفوائدَ طبية ولذة جسدية، وحتى إذ يترجمون عن غيرهم يُسقطون كل أدبٍ قائمٍ على البناء؛ فلم ينقلوا ملحمة واحدة، ولا «تراجيديا» واحدة، ولا قصة واحدة. العقلية العربية لا تشعر بالوحدة الفنية في العمل الفني الكبير؛ لأنها تتعجل اللذة، يكفيها بيت شِعرٍ واحدٌ أو حكمة واحدة أو لفظ واحد أو نغم أو زخرف لتمتلئ طربًا وإعجابًا؛ لهذا كله قصر العرب وظيفة الفن على ما نرى من الترف الدنيوي وإشباع لذات الحس، حتى الحكمة وشعراء الحكمة كانوا يؤدون عين الوظيفة؛ إشباع لذة

المنطق والمنطق جمالٌ دنيويٌّ ... ولا أستغرب غضب «نيتشه» على «إيروبيد» لإسرافه في هذا المنطق على حساب الموسيقى!

من المستحيل إذَن أن نرى في الحضارة العربية كلها أي ميلٍ لشئون الروح والفكر بالمعنى الذي تفهمه «مصر» و«الهند» من كلمتَي الروح والفكر! ... إن العرب أمةٌ عجيبة، تحقق حلمها في هذه الحياة، فتشبثت به تشبث المحروم، وأبَت إلا أن تروي ظمأها من الحياة وأن تعُبَّ من لذاتها عبًّا قبل أن يزول الحلم ويعود شقاء الصحراء، وقد كان ... إن موضع الحضارة العربية من «سانفونية» البشرية كموضع الـ «سكيرتزو» من سانفونية «بيتهوفن» نغمٌ سريع مُفرح لذيذ!

لا ريبَ عندي أن مصر والعرب طرفَا نقيض؛ مصر هي الرُّوح، هي السكون، هي الاستقرار، هي البناء! ... والعرب هي المادة، هي السرعة، هي الظعن، هي الزخرف.

مقابلة عجيبة، مصر والعرب وجهَا الدرهم، وعنصرَا الوجود ... أي أدبٍ عظيمٍ يخرج من هذا التلقيح! ... إني أومن بما أقول، وأتمنى للأدب المصري الحديث هذا المصير؛ زواج الرُّوح بالمادة، والسكون بالحركة، والاستقرار بالقلق، والبناء بالزخرف ... تلك ينابيع فكر كامل، ومدنيَّة متزنة لم تعرف البشرية لها من نظير ... إن أكثر المدنيات يميل: إما إلى ناحية الرُّوح، وإما إلى ناحية المادة!

حضارة واحدة قيل إنها استطاعت في وقتٍ ما هذا المزج بين الرُّوح والمادة، وهذا الاتزان بين عنصرَي الوجود، تلك حضارة «الإغريق»! ... نعم، أعود فأرُد إلى أُمة «الإغريق» اعتبارها، وأعترف أني عندما وضعتها في كفَّة المادة كنت متأثرًا بعض الشيء بكلام «تين»، و«تين» عقل خلاب، لكنه عقل، والعقل وحده بعيد عن فهم الجانب الروحي للمدنيات ... ما هداني إلى الحق إلا القلبُ ... إلا طول تأملي في جبهة «الباريتينون» ... من دماغ ذلك الجواد الذي خلقته يد «فيدياس»، فوق هذا المعبد خرجت أفكار توحي إليَّ بأن أولئك القوم كانوا أعمقَ مما نظن، وكانوا يشعرون بشيء آخر غير مجرد المادة الظاهرة، وما لبثَت «ميلبومين» أن جاءتني ببيِّنةٍ أخرى، وتأملت قليلًا فرأيت القناع قد كشف، وذكرتُ من فوري أن أصل الإغريق جنسان مختلفان؛ «اليونانيون» القادمون من آسيا، المعروفون عند الهنود باسم «اليافاناس» أي عُبَّاد «يونا»، و«الدوريون» الحربيون البرابرة الهابطون من الشمال، وإله اليونانيين هو «ديونيزوس» وإله الدوريين هو «أبولون» ... وها هنا تفسير الإغريق. في هذا الصراع بين «ديونيزوس» رمز الروح والقوى الخفية الشائعة والنشوة ... وبين «أبولون» رمز الفردية والشخصية المفروزة والوعي، صراع بين الروح والمادة، وبين

القلب والعقل، وبين النشوة والوعي «ديونيزوس» إلهٌ آسيويٌّ فيما يُخيل إليَّ أنه جُلب من «الهند» بلا مراء، فغدا في اليونان ينبوع الموسيقى، لهذا السبب قدرت إخفاق «الفارابي»؛ فإن الموسيقى العربية وليدة عقلٍ واعٍ، لأن العرب أُمة الفردية والوعي والمنطق العقلي والظاهر المحسوس! … إن العرب من عُبَّاد «أبولون» وهم لا يشعرون، إن العرب لا يمكن أن يفهموا «ديونيزوس»، تلك النشوة الدينية الجارفة التي تُخرج صاحبها من «سيطرة العقل والوعي، كي تصله مباشرة بالطبيعة! … إن أغاني عُبَّاد «باكوس» الحماسية في الغابات، ومزامير الـ «ساتير»، لشيءٌ بعيد إدراكه على العقلية الفردية، شعور الإنسان في لحظة أنه انقلب مخلوقًا له جسم جواد ورأس رجل، أو رأس رجل أو رِجل ماعزٍ … هذا الاتحاد بين الحيوان والإنسان إحساسٌ ليس له مثيلٌ إلا عند المصريين القدماء … هذا التلاقي بين الأنواع وبين القوى في مخلوق واحد لهو عند الأولِين بقية ذكرى تلك المخلوقات الإلهية البائدة التي كانت تحكم الأرض قبل ظهور الإنسان … مخلوقاتٌ لا هي من الإناث ولا هي من الذكور، لا هي من الحيوان ولا هي من الإنسان؛ لأن الأجناس والفصائل لم تكن قد فُرزت. كذلك «الساتير» في «الميتولوجيا» الإغريقية رمزٌ للإنسان الأول، الإنسان الداني من الحيوان، القريب من الآلهة، يدنو من الحيوان بغريزته الجنسية المتيقظة ينبوع القوة الخالقة عند الإغريق والهنود، كما هي عند المصريين، ويقرب من الآلهة بغريزته الروحية المتصلة بقوى الطبيعة الإلهية؛ فهو ما زال يحتفظ بقبسٍ من الحكمة العليا بدون أن يشعر، وببريقٍ من ذلك النور الروحي والإلهام الذاتي يرى به كتلة الزمن، من ماضٍ وحاضر ومستقبل في شبه لمحة واحدة!

تلك القدرة الخفية هي حاسةٌ بائدةٌ كانت للإنسان الأول، وفقدناها اليوم … نعم، فقدنا كل القوى الروحية التي منحتنا إياها الطبيعة يوم كنا نحبها ونتصل بها، ولم يبقَ لنا اليوم إلا العقل المحدود والمنطق القاصر … وها نحن أولاء اليوم في هذا الكون الهائل مخلوقاتٌ منفردةٌ منبوذةٌ … أين ذهب «ديونيوس»؟ … وهل يُبعث من جديد؟ … وإذا بُعث فهل يجد مَن يعرفه في هذا العصر ذي الحضارة المادية الفردية؟!

رجل واحد ما زال يذكر هذا الإله ويستطيع أن يعرفه إذا ظهر كما عرف «غالياس»[1] أصحاب الكهف! … وهو وحده كذلك يستطيع أن يستقبله باسم هذا العصر؛ هذا الغالياس

[1] أحد أبطال قصتي «أهل الكهف».

العصري هو «تاجور»! ... إنه يتكلم كثيرًا عن ذلك الاتحاد بين الإنسان والطبيعة، وعن ذلك الفاصل المرفوع بين الحياة الخاصة وبين الحياة العظمى التي تخترق الكون، وعن ذلك الحب بين الإنسان والجماد، هذا كلام جميل؛ لكن هل تراه يشعر بحقيقته؟ يُخيل إليَّ أن تلك الحقائق قد انطوت بانقضاء دولة الإغريق، بل لقد انقضت قبل أن تقضي دولة الإغريق! انقضت بطغيان منطق «سقراط» على رُوح «هوميروس»، انقضت بطرد «ديونيزوس» من «تراجيديات إيروبيد» ... غضبة «نيتشه» المعروفة ... انقضت بغلبة الإحساس الفعلي على الإحساس الروحي ... انقضت بانتصار «أبولون» في النهاية على «ديونيزوس».

وهكذا اختل التوازن، ورجحت كفَّة المادة، وانطفأت الحضارة الإغريقية إلى الأبد، ولم ترِث أوروبا منها غير كنوز العقل والمنطق وبقيت في الظلام كنوز «ديونيزوس» الخفية!

لم تنجح اليونان إذَن النجاح المطلوب في تطعيم الروح بالمادة؛ فهل تأمَل مصر بلوغ هذه الغاية يومًا؟

دمنهور في مايو ١٩٣٣م
من رسالة إلى «طه حسين»!

النقد

نحن متفقانِ ولا خلاف بيننا في الغاية، وهذا هو مطلبنا! ... هنالك تفاصيلُ أفترق فيها عنك ولن أعود إليها؛ فأنا أفزع من النظر إلى الوراء خشية أن أتحول إلى تمثالٍ من الملح، أو حتى إلى تمثالٍ من الذهب! ... نفسي تصدف أحيانًا عن الفكرة الجامدة مهما تكن خالدة، ويحلو لي أحيانًا أن أنثر الأفكار عابثًا من نافذة قطار!

إن رسائلنا في حقيقتها لا تعني أكثر من إثارة الغبار في أرض نائمة مفروشة بالحصى! ... لسنا نُصدر أحكامًا بهذه الكتب السريعة، وإنما نحن نطرح مسائل ونلقي بفروض، سوف يلتقطها ويجمعها الباحثون المنقطعون يوم تستيقظ الأجيال! ... اتفقنا إذَن، أو ينبغي لنا أن نتفق على أي حال، حتى ننصرف إلى شيء جديد!

إن البحث عن الجديد هو الخليق عندي بالمجهود! ... ولقد فتح لنا اليوم باب الجديد صديقُنا «أحمد أمين»! ... قال لي ذات مساء إنه يودُّ لو وضع كتابًا في أصول النقد! ... النقد؟ ... لفظ رنَّ في أُذني، وذكرت للفور أن رسالتي السابقة إليك كان موضوعها «الخلق»! ... وقلت في نفسي: ما يمنع من إتمام الكلام في رسالة ثانية يكون موضوعها «النقد»؟ ... وإذا الأمر ينكشف لي عن قضية كبيرة:

أنعُدُّ النقد كالخَلق، خاضعًا لسلطان التيارات الفكرية الثلاثة التي ذكرتها في ردك؛ التيار المصري القديم، والتيار العربي، والتيار الأوروبي ... أم نعُدُّ النقد كالعلم لا يخضع لمثل هذه المؤثرات؟ ... أما أنا فلن أجيب من فوري عن هذا السؤال؛ فأنا أكتب ولا أدري أين يحطُّ بي القلم! ... دعني أولًا أنشئ على هذا النغم بعض «تقاسيم» دون أن أعني الآن بالغاية. إن الغاية أحيانًا رخيصة بجانب الوسيلة، على الأقل في نظر الفن؛ لأن الغاية في الفن لا تبرر الوسيلة! ... الحياة كذلك، تلك القطعة الفنية التي أبدعها الخالق، أهي شيء غير وسيلة متينة التكوين ... ألَها معنًى غير ذلك الطريق المُبين الذي أوله ضباب وآخره

ضباب؟ ... خطٌّ هندسيٌّ رُسم على لوح الوجود، كيف ابتدأ، كيف انتهى ... لا يعني ذلك علم الهندسة! ... إنه خطٌّ بين نقطتين وكفى ... ليس لنا أن نسأل عن غاية الحياة، ولا عن غاية الفن، ولا عن غاية العلم! ... إن الغاية لا تهمُّ ... إنما المعنى كله في الوسيلة ... الحياة هي الطريق، العلم هو الطريقة، الفن هو الأسلوب! ... أما الغاية فلا غاية! ... وهل تُرتجى من العلم أو من الفن أو من الحياة غايةٌ مطلقة يومًا من الأيام؟ ... مُحال ... ما نحن إلا أسلوب الخالق ... ما الكون إلا أسلوب!

الأسلوب كل شيء عند كل خالق، وفي كل خلق ... إن الخالق أعظم من أن يحبس إرادته الخالدة في حدود «غاية»: لفظ يدل بذاته على معنى الانتهاء ... في اعتقادي أن كلمة «غاية» من صُنع العقل البشري الصغير! ... هذا العقل المحدود الذي يضع كل شيء دائمًا داخل حدود، ويأبى إلا أن يكون لكل شيءٍ أول وآخر ... إنما الخلود في الأسلوب؛ لأن الأسلوب لا أول له ولا آخر، فهو شيء كائن دائمًا لا علاقة له بالزمن!

إن رجل الفن ... وهو المقلِّد الأصغر للمبدع الأكبر ... يدرك أن الفن لا يعيش بالغاية؛ لأن الغاية فانية كاسمها، وإنما يعيش الفن بالأسلوب! ... لقد انقضت الغاية من تشييد الأهرام، وفنيت الغاية من بناء «البارتينون»! ... دفن الموتى أو عبادة الآلهة الغابرين غاية قد ماتت، وبقي أسلوب الفن وحده خالدًا في «الأهرام» و«البارتينون»! ... خدمة الإنسانية غاية العلم في نظر البسطاء، ولو سُئل عالِم في ذلك لابتسم: «ما لي وللإنسانية؟! ... إنما أنا أبحث عن سرِّ أسلوب الصانع الأعظم! ... إنما هي لذة البحث في ذاتها ... إنما هي طريقة البحث وأسلوبه ... ولولا ذلك السرور الذي يملأ نفسي إذ ينكشف لعيني الباحثة جمال أسلوب الله، لما تجشَّمت جهدًا في سبيل العلم، ولما كان للعلم هذا المعنى الرفيع!»

المخترعات كذلك ليست غاية العلم ... هي تطبيقٌ للعلم! ... إنما العلم هو البحث والخلاص المجرد عن كل غاية وعن كل استغلال، لقد كان الإغريق يبحثون ولا يطبقون؛ «فيثاغورس» مَثل من أمثلة الأسلوب الخالد للعلم الخالص ... الأسلوب إذَن هو محور النقد كما هو عماد الخَلق. وكلمة الأسلوب رحبة عميقة كالبحر، في جوفها كل كنوز المعرفة التي يصبو إليها البشر، ولعل كل ما أوتيه الإنسان — من سليقة سامية منذ أول الأزمان — ليس إلا انعكاسَ أسلوب الخلَّاق في نفس الإنسان ... هذا المنطق الذي نشأنا عليه ونرجع إليه في كل حياتنا، هذا الإحساس بالنتيجة والسبب، هذا الشعور بالتناسق والتناسب، هذا الإدراك للصلة التي تربط الشيء بالشيء، من أين جاءنا هذا نحن البشر؟

أهناك مصدرٌ آخر غير أسلوب الخالق، فتحت البشرية عينيها فألِفته حولها، فهو موجودٌ قبلها، وقبل الخليقة، كما يوجد الرسم والتصميم قبل البناء ... إن أسلوب المبدع في صنع الحقيقة هو وحده المنبع الأزلي لهذه الصفات كلها!

المنطق، ارتباط السبب النتيجة، الشيء بالشيء، والجزء بالكل. والتناسق والتناسب صفات هي بعينها صفات الأسلوب السليم لكلِّ عمل فنيٍّ عظيم! ... أسلوب الله هو المعلم الأول والأخير. وما أول صورة رسمها الإنسان على الأحجار وعظام الحيوان سوى إعلان شعوره الخفي بتلك الصفات! ... إن رجل الفن الأول هو أول إنسانٍ عرف «المنطق» صفة فنية بعد أن كان المنطق سليقة سامية، تسبح في أنحاء نفسه ولا يعرف ما هي ... إن المنطق الذي شيَّد الأهرام لهو صورة محكمة للمنطق الذي شيَّد الكون ... ما المنطق؟ ... ما معنى المنطق؟ ... سرُّه في تلك المرآة العظيمة الصافية التي تحيط بنا كالجدران.

الوجود، أجمل مثالٍ للمنطق في الأسلوب، ينبغي لرجل الفن والأدب والعلم أن يطيل فيه النظر! ... كل شيء في هذا الوجود مصنوع على طريقة واحدة، وعلى قاعدة واحدة ... ما القاعدة التي بُني عليها الوجود؟ ... هي القاعدة التي بُنيت عليها الأهرام ... هي قاعدة كل بناء.

التماسك بين الأجزاء في كلٍّ واحد منسَّق ... هذا التماسك ما علته؟ وكيف يكون؟ ... قانونٌ أستطيع أن أفرغه كما يفعل الرياضيون في صيغة بسيطة من لفظين: «الأخذ والعطاء»! ... كل شيء في هذا الوجود يحيا على نمط واحد! ... وكل حياة في هذا الوجود لها مظهر واحد ... «أخذ وعطاء» في حركات متصلة متشابهة.[1] زفير وشهيق عند الإنسان والأحياء، اكتساب وإشعاع عند النجوم والأشياء. الأخذ والعطاء قانون التماسك والاتصال في حياة الفرد والمجتمع والأمة والأمم، وفي حياة الأخلاق والسياسة والاقتصاد، وفي حياة المادة والروح، وفي حياة الأرض والأجرام والسُّدُم!

ليس في الوجود شيءٌ لا يأخذ ولا يعطي ... ليس في الوجود شيءٌ يعطي ولا يأخذ! ... كل شيءٍ في هذا الكون يعتمد على كل شيءٍ في هذا الكون؛ بنيان مرصوص يشد بعضه بعضًا، وكل خلق بنيان، ولا بنيان بغير وحدة شاملة، ولا وحدة شاملة بغير تضامنٍ بين الحجر والحجر، وبين الجزء والجزء!

[1] تعريف شخصي للحياة، أدبي الصيغة بالقياس إلى تعريف «كلود برنارد» العلمي للصيغة.

يتساءل «هنري بونكاريه» في كتابه «قيمة العلم»: «أيحق لنا أن نتكلم في سبب ظاهرة من ظواهر الكون، ما دام كل جزء من أجزائه متصلًا بكل جزء برباط التضامن؟ ... إن أية ظاهرة من الظواهر لن تكون نتيجة سبب واحد، بل نتيجة أسباب غير متناهية في العدد! ... إن أية ظاهرة مهما يكن شأنها ليست في الغالب إلا نتيجة لحالة الكون كله في لحظةٍ سلفت!»

فالكون كله إذَن إن هو إلا إناء واحد صنعته يد واحدة من عناصر متآلفة، وهذا التآلف أو التضامن إنما هو وليد ذلك القانون: «الأخذ والعطاء»!

ليس هذا كل المنطق في صنع الوجود، إنما المنطق تركيب ذلك القانون ... ما قِوام الأخذ والعطاء؟ ... هل يكون أخذ وعطاء إلا بين كائنات متشابهات؟ ... ما الحال لو أن الخالق أبدع وجودًا آخر على أسلوبٍ آخر، فصنع أناسًا يعيشون بالزفير ولا يعرفون الشهيق، ومخلوقات تأكل، ولا تُصرِّف، وأجرامًا تكتسب الحرارة والضوء ولا تشع؟ ... أي اتصالٍ يمكن أن يقوم بين كائنات خُلقت على غير أسلوب واحد؟ لا اتصال، وحيث لا اتصال لا بناء ... لا خلق ولا بناء في الكون أو في الفن بغير وحدة الأسلوب.

كذلك في مادة الأجزاء، هل يقوم أخذٌ وعطاءٌ بين أجسامٍ لا تتحد في مواد البناء؟ ... أي اتصالٍ بيني وبين أخي وابني، لو أن الخالق صنعني من عناصر غير عناصرهما، فجعلني من يابس ورطب وجعلهما من نور ونار وغاز وبخار؟ أيُّ ارتباطٍ لو أنه جعل كل مخلوق منفردًا بمادته وهيئته وعناصره عن كل مخلوق؟ ... أي هرمٍ يمكن أن يشيَّد بأحجار، أحدها من صخر، وآخر من عجين، والثالث من ورق، والرابع من طين؟ ... لا ارتباط بغير تشابه وتماثل، ولا تضامن بين أجزاء غير متجانسة في التركيب! ... إن كلَّ ما نُحس وجوده يتَّحد معنا في بعض العناصر ... بغير هذا ما كنا نعترف له بوجود ... إنَّا نعرف الأجرام؛ لأن أجسامنا تعرف الحرارة والضوء والحديد!

التشابه إذَن هو شرط الأخذ والعطاء! ... الاختلاف كذلك شرطٌ آخر! ... وهل يقوم أخذ وعطاء إلا بين كائنات مختلفة؟ ... ما الحال لو أن الخالق صنع كل شيء ككل شيء، فجعل كل رجل ككل رجل وكل جِرم ككل جِرم؟ ... طبع واحد، ومنظر واحد، وحجم واحد؟ ... أليس هذا التشابه المطلق ينفي الشخصية؟ ... وحيث لا شخصية فلا أخذ ولا عطاء، ولا تماسك ولا اتصال، وهل من صلة بيني وبين غيري إلا لاختلاف شخصه عن شخصي، وما عنده عما عندي؟ ... وهل رابطة الأجرام إلا اختلافها في الأحجام؟ ... الجاذبية، الحب؟ هل علتهما إلا اختلاف النسب في القوى والأشكال؟ ... إن مثل هذا الكون المتماثل لا يمكن

كذلك أن يشيَّد أو يوجَد، مثله مثل قصة تمثيلية أشخاصها لهم عين الاسم والجسم والطبع والحظ، يتكلمون عين الكلام، ويتحركون عين الحركات، ويتصرفون عين التصرفات! … أية علاقة يمكن أن تنشأ بين هذه المخلوقات؟ … وهل يشعر أحدهم بوجود الآخر؟ … وهل يدرك أحد منهم معنى كلمة «أنا»؟ … لا بدَّ من بعض الاختلاف بين الكائنات حتى يمتاز كل كائن عن الآخر، ومتى امتازت الأشخاص والأشياء والأجزاء نشأ بينها الأخذ والعطاء، وهما سرُّ التماسك في كل بناء.

ها هنا إذَن قوام التناسق: «التشابه لا كل التشابه، والاختلاف لا كل الاختلاف»!

«بيتهوفن» هو الذي كشف لي منذ سنوات عن سرِّ التأليف بين صوتين في عين الوقت؛ فقد لحظت أنه جمع بين صوتين متشابهين لا كل التشابه، مختلفين لا كل الاختلاف، وأدركت ألا تناسق بغير هذا! … فلو أنه جعل الصوتَين متشابهَين كل التشابه لفَنيَ أحدهما في الآخر، وما ميزنا غير صوت واحد! … ولو أنه جعلهما مختلفَين كل الاختلاف لاستحال على أُذن أن تصل بينهما وهما متباعدان متنافران، فأساس «التناسق» في الموسيقى والفن، كأساس التناسق في الحياة والكون؛ ائتلاف بين الأجزاء لا كل الائتلاف، واختلاف بينها لا كل الاختلاف!

جملة القول عندي إن أسلوب الله في صُنع الكون هو وحده منبع الفن، هو وحده مصدر ذلك الإدراك الإنساني للجمال منذ مبدأ الأجيال، أما نُقاد القرن التاسع عشر فلا أحبسهم رفعوا أبصارهم إلى هذا الأسلوب مستلهمين … إنما هم قد خرُّوا أمام تمثال العلم ساجدين، أنظارهم خاشعة ترنو في رجاء إلى شُعاعَين من الكهرباء، صادرَين من عدسات عينَيه الجامدتَين … القرن التاسع عشر قرن تألِيه العلم، فلقد بهَر العلم العالم بانتصاراتٍ حواسم متواليات؛ فإذا الأدب والفن والفلسفة كلها تُهرع إليه تُقرُّ له بالغلبة والسلطان، وإذا كل شيء يطلب إلى العلم تفسيرًا، وإذا العلم في نشوة الظافر وبسمة الواثق، لا يأبى أن يقضي فيما يعنيه وفيما لا يعنيه، وإذا العلم — هو علم المادة — يريد أن يتحدث في شئون الروح! … وإذا سُئل عن الروح قال: دونكم هذا الطريق! … وأشار إلى عين الطرائق التي أدت إلى الفوز في شئون المادة: التحليل والتركيب والتجربة والقياس والاستنتاج والاستقراء … إلخ!

بُهِت العالم لنظرية النشوء والارتقاء، وآمن الناس أن أصلنا من ماءٍ وخلايا حيةٍ وحيوان، وظل يسمو في المرتبة على مدى الأزمان، حتى بلغ القرد جَد الإنسان! … نظرية جميلة، خلب جمالها اللب، على الرغم من بشاعة ذلك الجَد الغول! … أما صدقها فجائز من حيث المادة والأجسام … ولكن! … وهنا القضية: أتصدُق هذه على الرُّوح أيضًا وشئون

الرُّوح؟ ... الإحساس بالجمال، أيخضع أيضًا للنشوء والارتقاء؟ ... نعم، نعم، نعم ... هكذا قالت المدرسة الإنجليزية: «سبنسر»، «جرانت»، «ألن»، «رسكن»، وكان لا بدَّ لهذه العقول التي فتنَتها نظرية التطور في المادة أن تبرر للناس نظرية التطور في الجمال!

وعجب الناس لنظريات علم «طبقات الأرض» وعلم «الحيوان» وعلم «الحياة» وأبحاث «لامارك» في تأثير البيئة والمناخ وظروف الحياة على طبيعة الأجسام، فقامت المدرسة الفرنسية «هيبوليت تين» تخرج للفكر والأدب نظرية للجمال والفن: الوحي والإلهام ومقاييس الحرارة وموازين الأحجام!

بل إني لأرى إصبع العلم قبل ذلك بقرنٍ تقود المدرسة الألمانية إلى نظريتها في الجمال: «عمانويل كانت»!

ولم يكفِ العلم هذا التوجيه والتأثير، بل تناول بيدَيه في هذا العهد الحديث جسم الجمال، وأعمل فيه المشرط والمسبار «علم النفس الحديث» وقُضي الأمر، وخرج الجمال من حدائق الفلسفة إلى معامل العلم!

لست أُزرِي بطرائق العلم، فهي وسائل البشرية التي لا تملك غيرها! ... وأذكر يوم كنتُ أرصد وقتًا للتفكير في هذه المسائل أني بسطتُ أمام نفسي هذا السؤال الساذج: الحيوان ... ما عِلمُه بالجَمال؟ ... حصان بين مُهرتَين؛ إحداهما جميلة مليئة شهباء، والأخرى قبيحة هزيلة عرجاء، إلى أيتهما يميل؟ ... ما ترددت يومئذٍ أن أقول في ثقةٍ واقتناعٍ: «إلى الجميلة يميل» ... ما وجه الترجيح؟ ... لست أدري، وحبذا التجربة فهي الحكم والفيصل! ... لكن يومئذٍ كنت أفكر تفكيرًا صِرفًا في أبراج عاجية، اعتدتُ أن آوِي إليها للتفكير الهادئ، فأين لي بالخيول والأفراس أُجري عليها التجاريب؟

فها أنا ذا أُقرُّ بأن التجربة وسيلة بشرية طبيعية للوصول إلى المعرفة، وأُقرُّ بأني شعرت يومًا بالحاجة إلى ممارستها في شئون الجَمال؛ غير أني على الرغم من هذا لا أحب أن أعتقد ببساطة أن نظريات العلم في شئون المادة تصدُق دائمًا في شئون الرُّوح! ... لا شيء يستطيع أن يقنعني بأن إحساس الجمال وليدُ تطور ونشوء! بي رغبة أن أصبح بغير دليل في يدي بأن إدراك الجمال وُلِد كاملًا في قلب الإنسان منذ رفع بصره وبصيرته إلى أسلوب الله فوعاه!

إني أخشى أن نقع في الغلط، إذ نطبق نظريات المادة في مسائل الروح، وهل تستطيع أن تجيز قول «رسكن» و«جرانت ألن» في «الإلياذة»:

«... ما كان يعني الأقدمون بالطبيعة ولا بجمالها إلا حين يتصلان بعيش الإنسان! ... ففي «الإلياذة» ما كان يوصف منظرٌ طبيعيٌّ لذاته، بل لمنفعته للإنسان، كأن يكون مكانًا

خصيبًا يفيض بالحنطة أو تكثر فيه الجياد! ... ما كانت الطبيعة سوى إطار للحوادث والأشخاص، لا أنها لذاتها محل للوصف!

إن الطبيعة لم تحَب لذاتها إلا في العصر الحديث؛ حيث استيقظ الإحساس بها ... إحساسٌ صافٍ خالصٌ لا تشوبه شائبة النفع أو المصلحة ...»

ماذا أقول في هذا الكلام؟ ... أهو جهلٌ بمشاعر الأقدمين ... أم تورطٌ في تطبيق نظرية التطور والنشوء؟ ... أتصدِّق حقًّا أن الشعور الرفيع بجمال الطبيعة لم يعرفه القدماء خالصًا لدنوهم من الحيوانية؟ ... أنصدِّق أن «هومير» لم يحس جمال الطبيعة لذاتها؟ ... أهذا «رسكن» يقول هذا الكلام؟ ... أما أنا فقد مضى كلامي في الطبيعة والقدماء، ورأيي الذي أبديته في رسالتي الأولى أن الأقدمين كانوا أقرب منا إلى الطبيعة وإلى فهمها ... لقد كان الأقدمون يحسون أنهم جزء من الطبيعة ونغم من أنغامها، أما «رسكن» و«ألن» أو الإنسان الحديث فلا يُحس إلا ذاته الآدمية منفصلة عن الطبيعة، وعن كل شيء!

ودليلي فن القدماء من مصريين وإغريق؛ أهذا فن قومٍ لا يحسون الطبيعة لذاتها، ولا يدركون قوانينها وأساليبها؟ ... إلى هذا الحد يصل الانقياد إلى النظريات؟ ... من أجل هذا لا أريد التمكين للعلم حتى يجلس على عرش النقد دون شريك ... أحب طرائق العلم ... لكني أخشى نتائج العلم ... فلنترفع بالرُّوح قليلًا، لست أريد أن أضع الروح تحت مِبضع العلم، رهبة مني أن يشقها فيجدها غلافًا أجوف ... وإني لا أنسى يوم شاهدتُ تشريح جثة آدمي للمرة الأولى، أي قلق يومئذٍ مزق إيماني بقيمة الإنسان؟! ... كلَّا — إني كرجلٍ من رجال الرُّوح لا أريد أن أفجع في خير ما أعيش به وله ... يريح نفسي دائمًا أن أقول إن عقل العلم لا يكفي ... ولا بدَّ — دون إدراك الجمال والروح — من العودة إلى القلب! ... أريد ألا يخرجني العلم من ذلك الإيمان الذي كان يضيء في قلوب المصريين القدماء، إيمان قُربهم من الخلاق؛ فإذا هم ببصائرهم العميقة العجيبة أول آدميين استطاعوا فهم أسلوب الله، والنفوذ إلى قوانين إبداعه. إن أقصى العلم الإيمان! ... أحبُّ ذلك العلم المؤمن الشاعر، الذي عرفه أيضًا الفلكيون العظام في القرنين السادس عشر والسابع عشر: «كوبرنيك» و«جاليليه» و«كيلر». إلى آخر قطرةٍ من ذلك العلم الممزوج بالإيمان! ... كانوا ينظرون إلى الكواكب كما نظر إليها من قبل المصريون الأقدمون، لا بعين العقل وحده بل بعين القلب أيضًا ... كانت السماء والنجوم في نظرهم مخلوقاتٍ حية! كانوا أيضًا يحسون — في كتلة النجوم وفي هذا الكون بأكمله — الروح الخالق ويد المبدع الأعظم ... ما أروع هذه العبارة من «كيلر»! ... فيها تلخيص جميل لكل ما يملأ نفسي: «... كل الخليقة ليست

سيمفونية عجيبة في مجال الرُّوح والأفكار. كما هي في مجال الأجسام والأحياء ... كل شيء متماسك مرتبط بعرًى متبادلة لا تنفصم ... كل شيء يكوِّن كلًّا متناسقًا ... إن الله قد خلقنا على صورته، وأعطانا الإحساس بالتناسق ... كل ما يوجد حي متحرك؛ لأن كل شيء متتابع متصل، كل كوكب وكل نجم إن هو إلا حيوان ذو نفس! ... إن روح النجوم هو سر حركتها، وسبب ذلك الحب الذي يربط بعضها إلى بعض، وتعليل ذلك النظام الذي تسير عليه الظواهر الطبيعية ... أولئك رجال ساروا في بيداء العقل دون أن ينسوا دليل القلب، أولئك هم العلماء العظام!

أرى أنك قد استشففت رأيي بعد هذا التمهيد! ... نعم، ولا أخشى أن أجيب الآن عن السؤال فأقول: إن التيارات الثلاثة التي ذكرتُها تصدق أيضًا في النقد، كما تصدق في الخلق ... أما التيار الأوروبي في النقد فهو المرتكز على العلم. ولقد وصل إلينا هذا التيار بالفعل وتأثرنا به، وإن بعض كتب النقد التي ظهرت أخيرًا في مصر الحديثة تنُم عن هذا الاتجاه العلمي. وهو أمر لا بأس به، بل هو واجب محتوم، على شريطة أن نقرن به ونضيف إليه عناصر جديدة، ووسائل أخرى مستخرجة من أرضنا وتراثنا، إذا أردنا أن نُنشئ لآدابنا طريقة شخصية كاملة في النقد!

فأما التيار المصري القديم فهو النقد المعتمد على الذوق؛ أي سليقة المنطق والتناسق، وهو عند المصريين القدماء سليقة المنطق الداخلي للأشياء والتناسق الباطن؛ أي القانون الذي يربط الشيء بالشيء! ... أي جمال للأهرام غير ذلك التناسق الهندسي الخفي وتلك القوانين المستنيرة التي قامت عليها تلك الكتلة من الأحجار؟ جمال عقلي داخلي، كذلك أسلوب الخالق لا يُعنى دائمًا بالجمال الظاهر وحده في خلق الطبيعة! فأي جمالٍ لجبل المقطم؟ ... إن الجمال الظاهر نسبي لا يُقدره غير الإنسان. إنما المنطق الداخلي للأشياء هو كل جمالها الحقيقي، هذا الإدراك للجمال الخفي فطَن إليه المصريون القدماء يوم صنعوا «الأهرام»: لم يرموا إلى الجمال الظاهر الذي يسُر العين، إنما أرادوا أن يصنعوا بأيديهم البشرية ظاهرة من ظواهر الطبيعة في روعتها وضخامتها وتأثيرها.

وقد تمَّت المعجزة، وإذا الأجيال على مدى آلاف السنين تعبُر الأهرام عبورها جبل المقطم سواءً بسواء، وكأنما اختلط الأمر في ضمير الزمن وضمير البشرية؛ فارتفع هذا «الخلق الآدمي» إلى «مقام الظواهر الطبيعية»! ... أولئك قوم أرادوا أن يُقلدوا أسلوب الله في عظمته ودقة قوانينه، فأعانهم الله على ما التمسوا، وكشف لهم عن بعض أسراره وطرائقه! ... هذا المقياس المصري القديم للجمال ما أحسبه قد أثر بعد في حياتنا الفكرية،

أو في أحكامنا الفنية ... أما التيار العربي القديم فهو النقد الذي قوامه ذوق الحس؛ أي سليقة المنطق الظاهر والتناسق الخارجي! ... الجَمال عند العرب هو الجَمال الظاهر الذي يسُر العين ويلِذُّ الأُذن ... أنستطيع أن نتخيل العرب تبني الأهرام أو تقدِّر فيها جمالًا؟ ... لقد جاء العرب مصر، وتحدثوا بجمال نيلها وأرضها وسمائها ولم يرَوا في الأهرام إلا شيئًا قد يحوي نقودًا مخبوءة، أما بناؤها فشيء لا يُحسب في الفن، إنما الحُسن عند العرب حُسن الهيئة قبل كل شيء. المساجد كالعرائس تكاد تخطُر حسنًا بزخارفها، زينة للناظرين ... بغير هذا فلا عمارة ولا فن، الشِّعر رنين لذيذ، وخيال جميل، ومعانٍ لطيفة، وألفاظ مختارة ظريفة، بغير هذا فلا شِعر ولا فن! ... الجمال عند العرب جمال إنساني، والفن عندهم شيءٌ صنعه الإنسان لنفسه وللذته ... الفن العربي القديم فن إنسان دنيوي، والفن المصري القديم فن إلهي ديني؛ لهذا اختلفت المقاييس في الجمال بين الفنين؛ أحدهما يعني بالتناسق الشكلي الذي يروق الإنسان، والثاني يعني بالتناسق الخفي بغير التفاتٍ إلى الإنسان! ... ولعل المقياس العربي القديم هو في مصر المنفرد حتى اليوم بالحكم في قضايا الشِّعر والأدب!

هذا المقياس العربي ذو الإبرة الدقيقة عجيب في تسجيل كل انحراف عن منطق الألفاظ! ... إنما هنالك في اعتقادي منطقٌ آخر مستترٌ أمرُه، يعني المقياس المصري!

إني — يوم قلتُ بمزج الرُّوح بالمادة في آدابنا — كان يجب عليَّ أيضًا أن أقول بوضع المقياس المصري في النقد، بجانب المقياس العربي.

«كوم حمادة» في سبتمبر عام ١٩٣٣م
من رسالة إلى «طه حسين»

بين الخالق والناقد

حقيقة أذكرُ أنك كنتَ عازمًا على نقد كتابي «محمد»، فما الذي منعك؟ وأذكر أيضًا أنك أفضيت إليَّ بخوفك أن يسيء بعض رجال الدين فهمَ مرادك، فأُضارَّ أنا بذلك، وهي عاطفة نبيلة حمدتُها لك ... على أني فيما أذكر أيضًا قد شجعتكَ على المُضي في نقدك، وهو في جملته لا يؤيدني، بل إني قد وافقتُك عليه معجبًا بفراستك مقدِّرًا لبراعتك في الوقوع من فورك على المواطن التي يجوز فيها النقد والكلام؛ فأنت ترى أن المؤلف لم يغضب، بل ابتسم واغتبط ليقظة الناقد!

في الواقع أني لست أومن كثيرًا بتلك الأسطورة التي تُروى عن غضب المؤلفين، واسمح لي أن أتكلم بلسانهم فأقول: إن هذا الغضب لا يجد سبيلًا إلى نفس الكاتب، إلا إذا شَعرَ من ناقده بعزوفٍ عن الحق والجِد، ونزوع إلى الحط من القدر، مُبطن بسوء القصد! ... فالناقد الذي يحترم شخصي ويهدم عملي لا يغضبني؛ لأني أعلم أن الأديب لا يهدمه النقد، فهو كائنٌ ممتازٌ لا يُهدم، ولا يُقبض إلا بإذنه، ولا يُقضى عليه إلا بإرادته! ... إن الأديب لا يموت مقتولًا، بل يموت منتحرًا ... ومع ذلك لا أحب للمؤلفين أن يغضبوا على أي حال؛ فإن الغضب علامة الضعف الآدمي، ولا شيء في الوجود أقوى من الابتسامة، ولكن مَن ذا الذي أعطى القدرة على الابتسام الصافي الجميل، في كل موقفٍ وفي كل حين؟ ... أهو الجبار وحده؟ ... ألا ترى معي أن الجبروت إنما هو الصفاء؟ ... «إذا أردت أن تسلك طريق السلام الدائم، فابتسم للقدر إذا بطش بأحد»! ... تلك كلمة لـ «عمر الخيام»، وضعتُها في صدر كتابي «عصفور من الشرق» الذي لم أكتب منه في سنوات ثلاث أكثر من ثلاثة فصول، وإنك لتعجب إذا قلتُ لك إن هذا البُطء أو هذا العجز مرجعُه علة واحدة، قد انكشفَت لبصيرتي آخر الأمر؛ عدم استكمال الصفة العليا التي يرتديها بعض رهبان الفكر، كما ترتدي المسوح؛ الصفاء!

إن كنت من رأيي في كل هذا فإن لي عندك حاجة؛ أن تنثر معي تلك الابتسامة بين الأدباء؛ فإن الأدب شيء جميل، هو جنةٌ لا صخب فيها، وهو معبدٌ لا تدخله الأحقاد ... إن أعجب ظاهرة في أدبنا أنه لا توجد فيه صداقات عظيمة جديرة أن يتحدث عنها تاريخ الأدب، تلك الصداقات التي نراها في آداب الحضارات الكبرى قد أنتجت من الرسائل والأخبار والآثار ما لا يقوَّم بمال! ... ما الذي يُعوِزنا نحن؟ ... أهو شيء في الخلق ... أم هو ضعف في النفس ... أم هو نقص في الثقافة؟ ... لست أعلم! ... إنما الذي أعلمه أن الصداقة الخالصة بين رجال الأدب والفكر، هي أظهر دليل على نُضج هذا الأدب، وهذا الفكر!

«القاهرة» في يونيو عام ١٩٣٦م
من رسالة إلى «أحمد أمين»

غاية الأدب والفن

«هذا هو الأدب الأمريكي يحمل لواءه اليوم رجالٌ مارسوا الحياة العملية في شتى شئونها، ثم لم يكتبوا في خيال وأوهام وأحلام، إنما يكتبون أكثر ما يكتبون في مشكلاتهم الحالية، ومسائلهم اليومية، وحياتهم الاجتماعية! ... وأكثر هؤلاء لا يستوحون أساطير اليونان والرومان، وإنما يستوحون مجتمعهم وما فيه وما يصبو إليه؛ فللأديب العربي أن يستوحي «امرأ القيس» أو «شهرزاد»! ... ولكن يجب أن يكون ذلك نوعًا من الأدب، لا كل نوع، ولا هو النوع الغالب، ولا هو الأرقى ...»[1]

مع الأسف أراني مضطرًّا أن أقول للصديق المبجَّل: إن استِيحاء أساطير اليونان والرومان و«امرئ القيس» وشهرزاد؛ هو النوع الأرقى في الأدب ... في كل أدبٍ ... لا في الماضي وحده ولا في الحاضر ... بل في الغد أيضًا وبعد آلاف السنين، ما دام الإنسان إنسانًا، وما دام رُقيه الذهني بخير لم يصِبه نُكاس؛ فالإنسان الأعلى هو الذي يصون «الجمال الفني» عن الاشتغال الأرضي في أي صورة، ويحتفظ فيه بمتعته الذهنية وثقافته الروحية! ... وإن اليوم الذي نرى فيه «الأدب» قد استُخدم للدعاية الاجتماعية، و«التصوير» استغل في معارض الإعلان عن السلع التجارية، و«الشِّعر» جُعل أداة لإثارة الجماهير في الانتخابات السياسية؛ لهو اليوم الذي نوقن فيه بأن الإنسان قد كرَّ فانقلب طفلًا، يضع في فمه تُحَف الذهن وطُرَف الفكر، لأنه لا يدرك لها نفعًا غير ذلك النفع المادي المباشر!

والأدب الأمريكي الذي يُعجب به الدكتور «أحمد أمين» هو في أغلبه صحافة راقية أكثر مما هو أدب حقيقي! ... والأدب الحقيقي فيه هو ما استند إلى أساطير اليونان والرومان،

---

[1] مقال لـ «أحمد أمين» نُشر في مجلة الثقافة عام ١٩٤٤م.

أي مخلوقات الإنسانية التي أبدعتها أحلامها الجميلة وخيالها الرائع ... فالخلاف بيني وبين صديقي «أحمد أمين» هو على معنى «الرقي»؛ فأنا لا أُسلِّم أبدًا بأن رقي الإنسان هو في تَقدُّم أسباب معاشه المادية ... هذا حقًّا هو الرقي بالمعنى الأمريكي، ولكن الرقي بالمعنى الإنساني المثالي شيءٌ غير ذلك ... إن الإنسان الأعلى ليس ذلك الذي يضع كل شيءٍ في فمه، ولكنه ذلك الذي يشعر بحاجته إلى مُتعٍ معنويةٍ وأغذية روحية وأطعمة ذهنية، لا علاقة لها من قُرب أو بُعد بضرورات حياته المادية أو الجُسمانية!

هذا هو الفرق الوحيد بين الإنسان والحيوان؛ فالحيوان لا يحتاج إلى أن يُطرب لبيت من الشِّعر أو لصوت من الغناء أو لتمثال من الرخام، ولا يمكن أن يخطر له على بالٍ وجود عالم آخر غير عالم الأكل والشرب والمأوى. ولو نشأ أدب بين فصيلة من الحيوان لكان هذا الأدب في رأيي قائمًا في جملته على مشكلات العراك على صيد الفريسة، ولاقتصر خياله على الحلم بأن في بطن كل سبعٍ غزالًا سمينًا، وفي فم كل حيوانٍ في الغاب — صغُر أو عظُم — غذاءً موفورًا بغير وثبٍ ولا بحثٍ ولا تربص.

بل فلنأخذ مثلًا جماعة النحل أو النمل، وقد بلغَت من الدقة والتناسق وروح التضامن في نظامها الاجتماعي ما أثار الدهشة، هذا المجتمع الذي شيَّده النحل على هذا الأساس من «الوعي الاجتماعي» لا «الوعي الفردي» لو قامت فيه نحلة شاعرة أو أديبة، أو ظهر فيه أدب وشِعر؛ فما يكون نوعه واتجاهه ومراميه؟ ... لا شكَّ عندي أن هذا الأدب أو الشِّعر سيكون له عين المرامي التي ينزل إليها «الأمريكان» ويتمناها لنا «أحمد أمين» ... سيتحدث أدب النَّحل وشِعره عن الأزهار من حيث كمية عسلها، ونصيب كل عامل من عُمال النحل في نقله وإعداده والانتفاع به في الخلية، عن حقوق الطوائف العاملة وواجباتها، ومشكلاتها اليومية وشئونها الحيوية ... أما الذي لن يحدث أبدًا فهو التفات النحل في أدبه أو شِعره إلى حُسن الأزهار في ذاتها، وإلى بهائها في ألوانها، وإلى تمايلها اللطيف مع النسيم، كأنها تُراقصه، وإلى تفتُّحها ابتسامًا للفجر وهي تُعانقه، وإلى نداها بدموع الليل وهي تُفارقه! ... لن يَفطَن النحل إلى هذا أبدًا ... ولو فعل لانقلب إنسانًا في لحظة واحدة. كل فضلِ الإنسان على غيره من المخلوقات أنه ارتفع إلى العناية بأشياءَ معنويةٍ لا تتصل مباشرة بطعامه وشرابه ومقومات حياته المادية. وهذه سماها فيما سماه: «الفن والأدب»، وحرص على أن تبقى — على قدر المستطاع — بعيدة عن تفاهاته الأرضية، لتذكره من حين إلى حين أنه ليس حيوانًا ... وهنا عظمة الفن والأدب، ولكن مطامع الناس شاءت أن تمدَّ أيديها الفانية إلى هذا الجوهر السامي لتسخره في شئون الأرض، فرأينا الشِّعر والأدب يتجهان إلى

غايات نفعية، فاستخدم الشِّعر أحيانًا لمدح الملوك والأمراء من أجل المال والثراء، أو لنشر الدعوة في الدين أو السياسة من أجل الثواب أو الجزاء!

ولكن كلمة الفن هي العليا دائمًا، وحكمه هو النافذ وحده، وها هو ذا قد حكم لـ «امرئ القيس» الجاهلي، فرفعه وقدَّمه على داعية الإسلام «حسان»، وفي هذا الدليل على أن الفن الخالص لوجه الجمال الفني هو الأرقى والأبقى … وذلك ما لا يُسلِّم به «أحمد أمين»؛ فهو يعتقد أن الفن المسخَّر لخدمة الضرورات اليومية في المجتمع هو الفن الأرقى، متأثرًا ولا ريب بتلك النظريات الحديثة في السياسة والاقتصاد التي ترمي كلها إلى تملُّق الجماهير، ومداهنة الدهماء، ومصانعة الجماعات والنقابات والهيئات، ومسايرة الكتَل والسواد من الناس والشعوب، مُوهِمة إياهم بجعل كل شيءٍ في خدمتهم … وخدمة الجموع معناها خدمة مصالحهم الأرضية المادية من مأكل ومشرب ومأوًى، لأن السواد والكل لن يطلبوا أبدًا، ولن يعرفوا غير هذا النوع المادي من المطالب. فإذا أردنا تسخير الفن في هذه الأغراض فمعنى ذلك الهبوط به إلى ذلك اللون من أدب النحل … أو على الأقل إلى ضرب من أدب الدعاية والوعظ والهِداية!

أما إذا كان في الإمكان وجود فنٍّ يخدم المجتمع دون أن يفقد ذرة من قيمته الفنية العليا فإني أُرحِّب به، وأُسلِّم من الفور بأنه الأرقى! … ولكن هذا لا يتهيأ إلا للأفذاذ الذين لا يظهرون في كل زمان! … فمِن أين لنا في شِعرنا بأمثال «المتنبي»؟ لقد أعدتُ قراءة ديوانه منذ أسابيع لأنظر كيف بقِي ذلك الشِّعر الذي خرج من وحي الدنانير. الحق أن المال كان باعثَه، ولكن الفن كان غايتَه … ذلك الذهن الذي أبدع صورًا يرى لها أحيانًا حركة ويبصر لها بريقًا، ويسمع لها رنينًا، كما في قوله:

وأمواهٌ تَصِلُّ بها حَصَاها صَليلَ الحَلْيِ في أيدِي الغَوانِي

ماذا يعنينا منه أن يكون حافزه استجداء مال، أو مدح ذي سلطان، أو خدمة مجتمع، أو تملق شعب؟ … المهم أن يكون هنالك فنٌّ قبل كل شيء. بغير هذا ما عاش لنا «المتنبي» حتى اليوم؛ فالسلطان يذهب، والدولة تزول، والشعوب تتغير، لكن الفن باقٍ!

أما بعد، فليتجه الأدب العربي حيث شاء له «أحمد أمين» وليخدم الجماعات ومشكلاتها الحالية، ومسائلها اليومية، ومطالبها المادية، وليبتعد عن «الفردية» التي هي أساس كل فن، والتي بغيرها لا يقوم فن، وليتجنب «تراجم الأفراد» أو ترجمة الكاتب لنفسه، أو تحليل الأدب لبعض الشخصيات أو روايات الغرام، أو نحو ذلك مما يراه

صديقي من قبيل النزعات الفردية، ولننكر الحقيقة القائلة: إن «الفنان» إذا لم يقُل: «أنا» فهو ليس بفنان، كما أن العالم الذي يقول: «أنا» ليس بعالم! ... لننكر ذلك مؤقتًا ولننتظر ... عسى أن يخرج لنا أثر فيه الفن، وفيه منفعة السواد!

الفن والإصلاح

لم يزل موضوع الأدب العربي ومستقبله في حاجة إلى كلام، على الرغم من الأدلة القوية التي ساقها «أحمد أمين» في ردِّه على كلمتي السابقة — وأخشى أن يتبادر إلى الذهن أننا نتجادل في قضية لنا فيها مصلحة — فالواقع المعروف أن أكثر مؤلفات «أحمد أمين»، مثل «فجر الإسلام»، و«ضُحى الإسلام» و«قصة الفلسفة» ... إلخ. بعيدة عن الاتجاه القومي أو الاجتماعي الذي يرجوه لأدبنا العربي، كما أن بعض كُتبي، مثل: «عودة الروح» و«يوميات نائب في الأرياف» قد رمَت بالفعل إلى هذا الهدف منذ زمن. فالقصة الأولى (عندما نُشرت بالفرنسية في باريس عام ١٩٣٧م) كَتب عنها ناقدٌ يقول: لو كان «... بريس BARRES»[١] حيًّا، واطَّلع عليه لنعتها بقصة النشاط القومي ...» كما أن الكتاب الآخر يرمي كما هو معلومٌ إلى نقد المجتمع الريفي بحكَّامه ومحكوميه؛ فأنا إذَن أقرب إلى تلك الدعوة ولي في نجاحها مصلحة أكثر مما لصديقي «أحمد أمين»؛ ولكن العقيدة الأدبية والإيمان الفني أقوى فيما يبدو عند كلٍّ منا، وأرفع من المصالح الخاصة والغايات الشخصية؛ فمناقشتنا اليوم تقوم في جوهرها إذَن على الرغبة المجردة في الوصول إلى غرضٍ واحد؛ هو كيف نبلُغ بأدبنا العربي قمة الكمال؟ ... الغاية واحدةٌ ولا ريب ولكن السُّبل مختلفة، «أحمد أمين» يرى أن أدبنا لن يصل إلى مرتبة الآداب الأوروبية إلا إذا خاض مثلها في طريق الحياة العامة؛ فنقدَ الفاسد من أوضاع المجتمع، وقوَّم المعوَّج، واقترح وسائل الإصلاح، ونادى بالنافع من العلاج، والمستحدَّث من النُّظم، وكان له من أعلامه قادة للرأي العام، يُبصِّرونه

---

[١] الكاتب والسياسي المشهور صاحب المؤلفات القومية النزعة.

بمواقع خطاه في طريق التقدم الاجتماعي، واتخذ من «أناتول فرانس» و«برناردشو» و«تولستوي» مثلًا يُحتذى.

وهنا يجدر بنا أن نسأل: هل من الحق أن الأدب الأوروبي بلغ مبلغه هذا بفضل نزوله مُعترَك الحركات الإصلاحية، أو بفضل قيمته الفنية ومزاياه الأدبية؟ ... وهل نزعات الإصلاح الاجتماعي هي اللون الغالب في الآثار الأوروبية، أو أنها لونٌ ليس بالغالب حتى في آثار المؤلف الواحد؟

الذي أعلمُه هو أن «أناتول فرانس» أديب، وأن «برنارد شو» مؤلفٌ مسرحي، وأن «تولستوي» قَصصيٌّ ... وتلك هي صفاتهم التي تؤخذ على سبيل الجِد! ... أما ميول «فرانس» و«شو» الاشتراكية، ونزعات «تولستوي» الإصلاحية، فهي نَواحٍ يُنظر إليها تارةً بغير احتفال، وتارة أخرى على أنها توابع أو ظواهر أو دلائل قد تُفسِّر على ضوئها بعض أعمالهم الأدبية وآثارهم الفنية!

إن الآداب الأوروبية لم تحترم يومًا فنانًا أو أديبًا لأنه مُصلح، ولكنها قد تحترم المصلح إذا كان أديبًا أو فنانًا، ولعل أبرز مَثل لذلك هو «إبسن»؛ فقد هزَّته أحداث بلاده السياسية والاجتماعية فكتبَ تمثيليات بروح الإصلاح، مثل «براند» و«عدو الشعب» و«بيت العروس» ... إلخ. ومات «إبسن» وتغيَّر مجتمعه، ونظر الناس في أعماله ... وكاد يهزَأ النقد به وبآرائه في السياسة والمجتمع، لولا فنُّه. وهكذا مات المُصلح في «إبسن» وبقيَ الفنان!

نحن الشرقيين تُبهِر عيوننا دائمًا كلمة «مُصلح» بقدر ما نستهين بكلمة «فنان» وإني لا أنسى دهشتي يومَ رأيت في مجلة «ماريان» الباريسية نقدًا للطبعة الفرنسية من «يوميات نائب في الأرياف»، للناقد المعروف «رامون فرناندیز» يقول فيه: إن القارئ لهذا الكتاب ينسى في أغلب الأحيان المقاصد الإصلاحية التي حرَّكت المؤلف لوضع كتابه، بل إن القارئ يتمنى ألا يتغير شيء في عالم هذه المخلوقات الإنسانية!

صدمني هذا القول؛ لأني كنت أعتقد أن مقاصد الإصلاح لها الاعتبار الأول في مثل هذا النوع من الكتب، وأن صفة المصلح هي التي يجب أن تُوضع موضع التقدير!

لقد تحدَّث الدكتور «أحمد أمين» في أكثر من موضعٍ عن الروايات الغرامية، وعرامة الحب، بما ينمُّ عن الازدراء؛ فذكَّرني ذلك من فوري برواية «شكسبير»، «روميو وجولييت»، وقلتُ في نفسي: ها هي ذي قصةٌ ليس فيها إصلاحٌ لمجتمعٍ ولا نهوض بشعب، وكل ما فيها عرامة الحب، ومع ذلك خلَّدتها الإنسانية؛ حيث طرحت ومزقت كثيرًا من صفحات

المصلحين وكتابات الهادين والمرشدين ... إن الإنسانية لأدرَى بما يسُرها وأعلم بما يُسعدها مني وأنا ومن أخي «أحمد أمين» ... كم من المؤلفات المملوءة بالإرشاد والإصلاح قد نُشرت وظهرت، ولم تحتفظ بها ذاكرة الزمان ... ولكنها احتفظت بقصة غرام، وقصيدة غَزَل، ورواية حبٍّ عارم!

وإذا كان حقًّا أن الزَّبَد يذهب جُفاء، وما ينفع الناس يمكث في الأرض، فماذا نقول في بقاء «روميو وجولييت» وفناء الكثير من القصص الإنجليزي الذي قُصد به إصلاح المجتمع؟ بل ماذا نقول في خلود قصة «غادة الكاميليا» لـ «دوماس الصغير» وموت أكثر رواياته الأخرى التي عالج فيها موضوعات اجتماعية كلها جِد وحسنٌ قصد؟

كلَّا ... لا ينبغي أن نُملي على الفن اتجاهًا بعينه، ولا يجوز لنا أن نوصيه بارتداء لباس الحكمة الرزينة، أو رداء الإصلاح الوقور! ... إلا أن يشاء هو ويرضى؛ لأننا إذا أرغمناه سخِر منا، وجعل من أردية رزانتنا ووقارنا أثواب مساخر، وقلَب بسحره أثواب الهزل خلودًا تنحني أمامه الجِباه على الرغم منا ... لقد أصاب «أندريه جيد» إذ قال: إن الفن لا ينبغي له أن يثبِت شيئًا، ولا أن ينفي شيئًا ... إن الفن العالي ليس أداة للجدل ... إنما هو شيء كالسحر ينفذ إلى النفوس فيُحدِث فيها أشياء ... إن الفنان ليس مُصلحًا، ولكنه هو صانع المُصلح! ... كل أولئك المصلحين من ملوك وزعماء وساسة، ما كوَّنهم وهيأهم لرسالات الإصلاح غير أدب الأدباء، وشِعر الشعراء، وفن الفنانين!

إن الفنان هو المصلح ولا شيء غير ذلك، أما أن ينزل الفنان بفنِّه إلى الميدان يناقش ويدافع ويهاجم وينافح؛ فهذا ما لم نرَه حتى الآن في فنٍّ استحق البقاء في أي أُمة من الأمم، أو حضارة من الحضارات ... من الحق أن بعض أهل الفكر والفن قادوا الرأي العام في بلادهم وبلاد العالم، ولكنهم كانوا في الواقع يفعلون ذلك باعتبارهم شخصيات عظيمة مفكرة، من واجبها أن تُبدي آراءها في المسائل الكبرى، لا باعتبارهم فنانين يُقحمون فنَّهم في ميادين الشئون اليومية. لطالما تحدث الشاعر «فاليري» عن المشكلات الإنسانية التي تمسُّ المجتمع العالمي الحاضر، ولكن هل رأيناه وضع ذلك في قصيدة واحدة من قصائده؟

إن قيادة الرأي العام واجبةٌ على الأديب، ولا ينسى «أحمد أمين» ندائي إلى الأدباء أن يتسلَّموا القيادة الروحية والفكرية في أول هذه الحرب، وما قام حول هذا النداء من جدل، ولكن الذي أراه خطرًا على الأدب هو قهر الأديب على أن يتجه اتجاهًا يُعينه في صميم فنِّه ... وحسبُنا أن نتأمل حال الأدب في البلاد الدكتاتورية التي كبَّلت وحي الأدباء بالقيود؛ فلم تُخرِج من قلوبهم إلا كتابات مفتعلة، تفوح برائحة واحدة، كأنها خارجة

من مطبخ واحد ... إن الفن هو الحرية، حرية الفكر والشعور ... ولا منبع له إلا فكر الفنان وقلبه، هما وحدهما الهاديان له ... إن الوعي الفردي هو روح الفن؛ فإذا أردنا إبادة الفن واستئصاله من الأرض، فلنقتل فيه ذلك الوعي الفردي.

ولقد أصاب صديق الطرفَين الكاتب الكبير «العقاد» إذ قال في تعليقه على مناقشاتنا هذه: «إن اتجاه التاريخ الإنساني متقدم من الاجتماعية إلى الفردية.» وهذا حقٌّ إذ الفردية هي عنوان الكرامة الإنسانية ... هي شعور الإنسان بقيمة فكره وإحساسه لا بفكر الجماعة وإحساسها! ... إن الحيوان لا يفكِّر بفكره، ولا يحسُّ بإحساسه ... إنما هو يفكِّر ويُحس بغريزة الجماعة كلها والنوع كله! ... ولن يرقى الحيوان إلى مرتبة الإنسان إلا إذا استقلَّ في تفكيره وإحساسه ... إن الوعي الاجتماعي في الحيوان هو الذي جعل الحيوان حيوانًا، والفردية؛ أي الحرية هي التي جعلت الإنسان إنسانًا.

على أنه لا ينبغي الخلط بين الفردية والأنانية؛ فإني حينما قلتُ: «إن الفنان الذي لا يقول «أنا» ليس بفنان، كما أن العالِم إذا قال «أنا» ليس بعالِم.» إنما قصدت المعنى الفني لا المعنى الخُلقي! ... قصدت أن الفنان هو الذي يقول: «إن الطبيعة جميلة.» لأني أراها جميلة، أما العالِم فلا ينبغي له أن يقول ذلك، ولكن عليه أن يقول: «الطبيعة جميلة أو قبيحة، ساكنة أو متحركة؛ لأن البحث والتحليل والبرهان والدليل تؤدي إلى هذه النتيجة!».

الفنان هو الذي يكشف عن الطبيعة من خلال نفسه، والعالم هو الذي كشف عن الطبيعة من خلال المجهر، وكلاهما يُكمل الآخر في بناء المعارف الإنسانية، ولا ينبغي لأحدهما أن يلجأ إلى وسائل الآخر في استجلاء الحقائق، واستكناه الطبائع!

إن الفن مصدره الشخص، والعلم مصدره الموضوع ... الفن شخصي، والعلم موضوعي ... الفن يقول: «أنا» أي «نفسي» والعلم يقول: «هو» أي «الشيء»!

أما أن يخدم الفنان والعالِم أمته وقومه فهذا واقع بالبداهة والضرورة؛ لأن آثار الفن والعلم لا تبقى، ولا يمكن أن تبقى إلا إذا رأى الناس في بقائها منفعة؛ فلا ينبغي أن نقول للفنان والعالِم: «اصنعا شيئًا نافعًا للناس»، بل يجب أن نقول لهما فقط: «اصنعا فنًّا وعلمًا»!

منابع الفن المصري

في عام ١٩٣٣م عَقِب نشرِ كتابي «أهل الكهف» جاءني أديب صحفي يُحادثني في شأنه، ويسألني عما حمَلني على اختيار موضوعه، فأجبته:

حمَلني على ذلك شيء واحد: الرغبة في كتابة مأساة مصرية على أساس مصري ... إنك تعلم أن أساس المأساة الإغريقية هو «القَدَر»! هو ذلك النضال الهائل بين الإنسان والقَدَر! ... فهل تعلم ما أساس المأساة المصرية كما أتصورها؟ ... أساسها «الزمن» ... أساسها ذلك النضال الهائل بين الإنسان والزمن ... اقرأ «كتاب الموتى» تُحس ذلك للفور! ... عند الإغريق هو «القضاء والقَدَر» وعند المصريين هو «الزمان والمكان»، لكلٍّ من الشعبينِ تِنِّين مخيف كُتِب على الإنسان قتاله! ... وأنت ترى أن «تِنِّين» المصريين وهو «الزمان والمكان» رأسه في هذه الأرض، وذنَبه في العالم الآخر المجهول! ... نعم، إن «مصر» لا يمكن أن تفكِّر في غير الخلوص إلى حياةٍ أخرى ... دائمًا ما وراء الطبيعة ... دائمًا الفلسفة الدينية ... دائمًا ذلك الفزع من الموت، وذلك الأمل في انتصار الروح على الزمان والمكان! ... وذلك الانتصار إنما هو في «البعث»! ... بعث لا إلى عالم آخر، لا يعرف الزمان والمكان، وإنما بعثٌ إلى عين هذا العالم ونفس هذه الأرض بزمانها ومكانها، ولقد شيدوا الأهرام لتَقوى — على هذا التِّنين — حصون الروح في حربها المخيفة مع عناصر الفناء الآدمي! ... التحنيط كذلك اختراعٌ آخر، ولَّدته ضرورة الدفاع في تلك الحرب الضروس! ... أين تلك الحروب من حرب طروادة؟ ... لم تكن مصر في حاجة إلى «هوميروس» منها يسطِّر أخبارها؛ لأن صليل تلك الحرب لا يوصف من قلمٍ بشري! ... إنها صيحات الروح تُدوي طولَ الأبد من بين سطور «كتاب الموتى» ... إن أعظم مأساة لم تُدوَّن، ولا يمكن أن تُدوَّن: «المأساة المصرية»! ... وبعد هذا تسألني: ما الذي حمَلني على كتابة «أهل الكهف»؟

... إنها صورة ضئيلة وصدًى خافت لتلك المبارزة بين «الزمن والإنسان»، وفي قصتي «شهرزاد» صورة أخرى للمبارزة بين «الإنسان والمكان».

– إذَن أنتم تقولون باستيحاء الفكر المصري القديم؟

– إني أقول باستيحاءٍ كل ما هو مصري!

– كيف نُميز ما هو مصري عما هو دخيل على مصر، وقد دخلت مصر وتداولتها حضارات مختلفة؟

– في مصر أفكار ثابتة لم تتغير إلا قليلًا، منذ عهد الأساطير الأولى حتى اليوم، ذلك لأنها متَّصلة بصميم هذه الأرض ومستوحاة من نفس طين هذا الوادي الخصيب، ومن نفس هذا النيل الخالد! إن أفكار الإنسان وعقائده وديناته وخرافاته إنما تُولَد من مظاهر الحياة التي حوله! ... ما «اليونان» بأساطيرها وفلسفتها بغير البحر المتوسط وجُزر «اليونان»؟ ... وما أساطير «النرويج» بغير الغابات وبحر الشمال؟ ... وما فلسفة «الهند» بغير نهر «الجانج» المقدَّس وأدغال الهند؟! كذلك هل يتصور تفكير مصري بغير هذه الأرض الخصبة البطحاء التي تلِد الخير في كل عام دون أن يُصيبها العقم أو يبدو عليها الهِرَم؟ ... شبابها خالد، هذا الشباب الذي تفهمه مصر حق الفهم، وها هي ذي آثار مصر منذ الأزل من تماثيل وصور على حيطان المعابد، هل شاهدت فيها تمثالًا واحدًا يُمثِّل إنسانًا هَرِمًا؟ ... كل تماثيل مصر وصورها تُمثِّل الشباب؛ لأن كل مظاهر الحياة في مصر من أرض وماء وسماء فتيَّة قوية رقيقة، تُجدد وتبعث وتُوحي بالحياة الدائمة!

إن العمر لا وزن له في مصر؛ آلهتهم وملوكهم وكهانهم وعبيدهم حليقون نُحفاء، لا يبدو عليهم عُمر ولا سنٌّ ولا أثر واحد من آثار الزمن! ... شباب وفُتوة وقوة كهذه الأرض السوداء البطحاء، التي ما خطَّها قط المشيب! ... إن الزمن لا وزن له عند مصر، خوفًا منه، واحتقارًا له، أو حفيظة عليه. كل ذلك جائز! ... إنما الواقع أن مصر كانت تؤمن إيمانًا عجيبًا بانتصارها على الزمن رمز «العدم» بالبعث الدائم!

فها هو ذا النيل في انتظام يحيا ويموت مرة في كل عام، موت وبعث، وبعث ثم موت ... هكذا دواليك كساقية النيل ذات الجرَّات الحمراء! ... من هذا النيل خرجت أساطير البعث، وفي هذه الأرض الجميلة الدائمة الخصب نشأت فكرة الخلود وقتال «العدم» تشبُّثًا بهذه الأرض المحبوبة، لم تخلق الآلهة جنة سواها، فهي المرجع والمآب، يموتون عليها ويعودون إليها، موت ثم حياة ثم موت! ... وهكذا إلى أبد الآبدين ... لا الموت يفنى ولا الحياة تفنى ... شأن هذا النيل في حياته وموته!

تلك فكرة أساسية من أفكار مصر الثابتة ... وُلِدت في العهد الفرعوني الوثني الأول، فهل تزايَلَت مع العهد المسيحي أو مع العهد الإسلامي؟ ... كلَّا؛ لم تتزايل، ولم تكن مصر تقبل اعتناق المسيحية أو الإسلام دينًا لها، لو لم تجِد في هذين الدينَين فكرة البعث في جوهرها ولُبِّها! ... وقد رفضَت مصر دين «إسرائيل» لخلوِّه من تلك الفكرة التي لا تعيش مصر بغيرها ... البعث هو نشيد مصر الخالد، يُغنِّيه النيل في كل عام ... والنبات والطيور والسماء والشعراء!

– إذَن البعث والزمن من أفكار مصر الثابتة، التي تصلح وَحيًا للأدب المصري الحديث في رأيكم؟

– بلا شك، وفكرة أخرى: قوة القلب ... بغير قوة القلب — أي قوة الإيمان والحب — ما كانت مصر تستطيع أن تنشِئ هذا الفن العظيم الذي انتصرت به فعلًا على الزمن، ولا تزال تنتصر به عليه في كل جيلٍ ... وقلب الفنان المصري الذي نحت تمثال «شيخ البلد» أو تمثال «نفرتيتي» ما زال ينبض بالحياة، ويُحس حياته روادُ متحف «اللوفر» ومتحف «برلين»!

– ومصر في عهد المسيح والإسلام؟

– مصر في العهد المسيحي، كان فيها أدب قَصصي ديني صوفي رائع، تلمس فيه الشخصية المصرية بأفكارها الثابتة ووسائلها الخاصة، أكثر مما تلمح فيه الطابع الروماني!

ومصر الإسلامية شيَّدت مساجد ضخمة المظهر، قوية البنيان، بسيطة التفصيل، لولا أسلوب البناء الإسلامي لخِلتها معبدًا فرعونيًّا في عظمة الأثر الذي تُحدِثه في النفس! ... ذلك أن فن العمارة الإسلامي يسمو بالزُّخرف لا بالبناء!

والفن الفِرعوني المعماري يتفوَّق بالبناء لا بالزُّخرف، لهذا السبب كان الفرق ملحوظًا بين بعض مساجد مصر الشهيرة «قلاوون» و«السلطان حسن» ... إلخ. وبين المساجد الأخرى في غير مصر. وكذلك كلما استوحى الفنان المصري تاريخ قلبه وأرضه أنتج فنًّا شخصيًّا لا صلة له بغير هذا القلب وهذه الأرض!

وقِس على ذلك الشِّعر والقصص الذي ظهر في مصر الإسلامية مفعمًا بروح هذه الأرض لا بروح البادية أو وحي أُمة أخرى!

– وما قولكم في الأسلوب الأدبي الذي يميِّز مصر ويطبعها بطابع خاص؟

– الأسلوب هو مِزاج الفنان وطبيعته ووسيلته الخاصة في إظهار مكنون فكره ... أو هو الشخص كما قال «بوفون»! ... هذا صحيحٌ إلى حدٍّ ما. إن الكاتب إذ يخلو إلى

نفسه وقلبه، ويترك التصنُّع والتقليد يستطيع أن يهتدي إلى أسلوبه؛ لكن لا تظن الطريق هينًا. ذلك الطريق الوعر الطويل بين الإنسان وقلبه! … إن القلب البشري لأعمق من أن يُستكشف قراره من أول نظرةٍ … إن قلب الإنسان بئر سحيقة رسَّخت فيها تجاريب جنسه وأمته وآلاف السنين، طبقة فوق طبقة، فعليه إذَن أن ينزل طبقات هذه البئر … وها أنا ذا أعود بك إلى نغمتي الأولى:

حتى الأسلوب ينبغي لنا أن نبحث عنه في أرض مصر وفنِّها على مدى الأزمان! … ولقد سبقتنا إلى ذلك البحث أمم الغرب مع الأسف.

الفن الحديث كلُّه من تصوير ونحت وعمارة، انطلق يبحث عن وسائل جديدة للتعبير، فوجدها في مصر القديمة؛ وجَد طريقة تركيب الأشكال المختلفة على قواعد هندسية «الكوبزم»، وجد وسائل التعبير عن حقائق «الشكل» التي تَخفى على العين العادية … وجَد أساليب الحركة والإضاءة في التماثيل والأعمدة مما لا نظير له في قوة الأداء وبساطته، كل ذلك وجده الغرب، وشيَّد على أساسه فنًّا جديدًا، ونحن نستطيع أن نجد أكثر من ذلك لو بحثنا طويلًا وتأملنا مليًّا! … إن كنوز قلوبنا العميقة لا قاع لها، وهي أدنى إلى أيدينا من الغرباء!

– وأيُّ أسلوبٍ اخترتُموه لأهل الكهف؟

– لست أعرف … على النقد أن يُجيب! إن المؤلف لا يقع في الخطأ إلا عندما يحاول الكلام في عمله … إن الإنسان لا يستطيع أن يرى ملامحه أو يصفها إلا بالمرآة، والنقد هو المرآة!

– وهل ستقدِّمون «أهل الكهف» للتمثيل؟

– إني لم أكتب هذه القصة للتمثيل، ولو كان في مقدوري معالجة الفكرة في قصيدة أو صورة زيتية أو في قطعة موسيقية لفعلت!

لقد كانت وسيلتي في إخراج الفكرة هي الحوار، ذلك القالب الذي أُحبه بين قوالب الأدب، ومع ذلك أليست القصة التمثيلية أحيانًا شكلًا من أشكال الأدب … لها كيان مستقل منسَّق كالقصيدة والصورة والهيكل الهندسي، ذات جمالٍ في التركيب وتَناسُب في الفكرة يوحيان باللذة الفنية لذاتها؟ إن التمثيل أحيانًا إنْ هو إلا مجرد تفسير وليس ضرورة أو غاية أو إتمامًا للقصة التمثيلية! … إن مآسي «سوفوكل»، ودرامات «كاليداسا الهندي» و«فاوست» تأليف «جوته»، لهي كلها أدب صراح، تُدخل على النفس — بمجرد قراءتها — لذة فنية كاملة، بغير حاجة إلى مسرح وممثلين، ولقد أَعَدتُ النظر أخيرًا في

مأساة «هيبوليت» لـ «أيروبيد» ففضَّلتها على «فيدرا» لـ «راسين» مع أن «راسين» راعى مقتضيات المسرح في عهده، وحذف «الكورس»؛ فوجدت أنا الجمال في هذا «الكورس» المحذوف، وودتُ لو أستطيع إدخال «الكورس» في قصة أكتبها … نعم، «الكورس» الآن في أواخر القرن العشرين، سأُعيد إليه اعتباره يومًا … إنما في لونٍ آخر، وبروحٍ أخرى مستمدة من «كتاب الموتى» وأوراق البردي![1] … نعم، إن «الكورس» الخفي الذي أسمع همسه الغريب، وآهاته المتقطعة، ونَوحه المخنوق، ثم هدوءه العميق، ثم نهوضه وصياحه وإعلانه الانتصار، لهو شيء بعيد عن المسرح، قريب من المعبد، عسير على الكلام تفسيره، مستطاعٌ للموسيقى وحدها التعبير عنه!

[1] أرسَل إليَّ «أتين دريوتون»، مدير مصلحة الآثار المصرية سابقًا، بحثًا خاصًّا بالمأساة في مصر القديمة، ضمَّنه ترجمة دقيقة الأجزاء من حوار أبطال قصة مقدَّسة، وكلام «الكورس» كما وجد حديثًا في بعض أوراق البردي. وقد أدهشني جمال القطعة، كما أنها قد كشفت للعالم «دريوتون» ولبعض زملائه من مشاهير علماء الآثار في العالم عن منبع «المسرح الإغريقي القديم»؛ إذ تبيَّن أن هذه القطعة التمثيلية تشمل قسمين: قسمًا كلاميًّا وقسمًا غنائيًّا، وأنها كانت تُمثَّل في المواسم الدينية؛ فالغناء إذَن والكورس والرقص الديني الذي عزا إليه «نيتشه» أصل التراجيديا الإغريقية إنما يرجع إلى أصل أقدم منه هو التراجيديا المصرية القديمة.

الثقافة الشرقية

إذا كنتُ قد أطلتُ الكلام في رُوح «مصر» وتراث «مصر» فما ذلك عن رغبة في حبس تفكيرنا في حدود قومية ضيقة، إنما أنا أرمي إلى غاية أبعد وأَرحَب ... إني أريد دعم الثقافة الشرقية كلها، والعمل على إنهاضها؛ لتقف إلى جانب الحضارة الغربية قوية غنية. وهذا الغنى لن يأتي إلا إذا عكف كل بلدٍ من بلاد الشرق في أول الأمر على نفسه، ليستخرجَ من بطن الأرض التي يحيا عليها كل كنوز ماضيها، حتى إذا اجتمع لدى تلك البلاد قدرٌ عظيمٌ من تلك اللآلئ القديمة مجلوَّة منزوعًا عنها التراب، صُبَّ ذلك الثراء كله في مَعين واحد مشترك، وقُدِّم إلى الإنسانية باسم: «الثقافة الشرقية»!

على أن الذي يدعو إلى الأسف والألم أن بعض المفكرين الشرقيين أنفسِهم يشكُّون ويُشككون في حقيقة وجود «الثقافة الشرقية». أولئك هم الذين قد بهرتهم انتصارات «الثقافة الغربية» المسيطرة الآن على العالم؛ فأعمَتهم أشعتُها الساطعة، وأقعدَتهم وأسجدَتهم يُسبِّحون بمَجدها، ويفركون أعينهم التي لا ترى شيئًا غير هذا النور الكثير!

ذلك هو العمى، والعُقم، والكسل. كذلك لا أُقرُّ تلك الفئة الأخرى من الشرقيين، الذين يظنون أن التحمس للثقافة الشرقية معناه الجلوس متأثرين في أطمار حضارات بالية يُصعِّرون خدودهم ويصيحون بألفاظ نَعرة مضحكة وفخر كاذب! ... وذلك أيضًا هو العمى، والعقم، والكسل! ... إنما إنهاض الثقافة الشرقية لا يكون إلا بنهوض الشرقيين إلى العمل؛ فيبدءون أولًا بالجري واللحاق بما وصلت إليه الثقافة الغربية ... تلك الثقافة التي أضافت اليوم كثيرًا على ما استطاعت أخذه من الحضارات الأولى!

فثقافة الغرب — خصوصًا في العصر الحديث — لا تهمل شيئًا أنتجه العقل البشري في أي عصرٍ من العصور، وفي أي بقعةٍ من البقاع؛ فالأوروبيون قد أفادوا من الفلسفة الهندية والصينية «شوبنهور» و«نيتشه»، وحتى من الثقافة العربية والشِّعر

العربي «جوته» و«هايني». وكلهم طبعوه بطابع فنِّهم وتفكيرهم، ذلك أن حُبَّ المعرفة والاستطلاع لا يمكن أن يسمح لرجال الفكر الحقيقيين بالاقتناع بلون واحد أو الوقوف عند حدٍّ معلوم؛ فالأوروبيون دائمًا يأخذون ما عند غيرهم من ثروة فكرية ليصُبُّوه في قالبهم!

فأوروبا إذَن على ثروتها وغناها الثقافي اليوم لم يخطر ببالها قطُّ أن تتقاعد عن قطف ثمار أية شجرةٍ أخرى! ... إن الفكر البشري ليس له حدودٌ «دوليةٌ» إنما هنالك المزاج الخاص، والطبيعة الخاصة التي تُكيف تلك الثروة المباحة التي تنهل منها كل ثقافة وكل حضارة!

إن الحضارة الأوروبية في الحقيقة لم تَخلق بيديها خلقًا كل هذه القوالب المعروفة في آدابها وفنونها، ولا كل هذه النظريات الشائعة في فلسفتها وعلمها؛ فإن كثيرًا من هذه القوالب والنظريات مأخوذٌ عن الشرق في حالته الأوليَّة، ولكن الأوروبيين زادوا عليه، وأضافوا إليه، وأخرجوه ممهورًا بإمضائهم، ومطليًّا بشخصيتهم! ... وهذا في الواقع عملُ كلِّ حضارةٍ من الحضارات! ... ولا نستثني من ذلك الحضارةَ الإسلامية نفسَها في عصورها الزاهرة، فما هي إلا جماع أفكار وثقافات وحضاراتِ أُمم مختلفة، صَبَّها الإسلام في قالبه، وجعل منها لونًا خاصًّا.

فالثقافة الشرقية إذَن، لا يمكن أن تكون اليوم بمعزلٍ عن ثقافة أوروبا ولا أن تغمض عينها عن هذه الثروة الهائلة؛ فلنمد أيدينا إذَن غير مقيدين بسلاسل التقاليد أو العادات أو العقائد، نأخذ كل شيء، ونهضم كل شيء، ثم نُعرِّج على روحنا القديم، كلٌّ في بلده، فنستخلص الأفكار الثابتة المدفونة؛ إذ لا ريبَ أن كل بلدٍ من بلاد الشرق فيه مناجم الفكر مفعمة متألقة لم تُستخرج بعد؛ فالغرب على نشاطه الفكري ونهمه الذهني لا يستطيع أن يستخرج كل كنوز الشرق مثل الشرقي؛ إذ لا بدَّ أن تكون معاوله قد ارتطمت بحواجزَ منيعةٍ من أسرار طبيعة لا تكشفها غير طبيعة الشرقي وغرائزه، وتجارب حكمته المتراكمة في أعمال نفسه، على مدى آلاف السنين!

فإذا تم لنا ذلك، فإننا نستطيع أن نطبع كل تلك الثروة وكل تلك المادة بطابعنا الخاص، وعلى نحوِ ما حدث عندما اختلفت طبائع الدول الشمالية في أوروبا عن طبائع الدول الجنوبية؛ فتفرعت عن الثقافة الواحدة ثقافتان، هما الثقافة اللاتينية، والثقافة الأنجلوسكسونية، ثقافتان لا تختلفان من حيث مقدار الثروة الذهنية، وإنما تختلفان في الطابع والمِزاج والرُّوح؛ فإذا كان في مقدورنا نحن أن نضيف إلى هاتين الثقافتَين

العظيمتَين ثقافة ثالثة، لا تختلف عنهما في مبلغ ثروتها ومادتها، وإنما تخالفهما فقط في الطابع والطبيعة والروح، ثقافة ثالثة حية نامية جميلة، عليها خاتَم شخصيتنا الشرقية، يراها الغرب، فكأنه يرى شيئًا جديدًا، مستقلًّا، قد أخرج لهم من صدر عبقرية جديدة؛ فإننا نكون قد أدَّينا رسالتنا بعملنا ومواهبنا في بنائه العظيم، وأن نظفر أخيرًا باحترام هاتين الثقافتَين الحيتَين القائمتَين، ذلك الاحترام الذي تنظر به إحداهما إلى الأخرى، ويسترد «الشرق» عندئذٍ اعتباره في نظرِ «الغرب»!

كتلة «الروح الشرقي»

سألني سائلٌ عن رأيي في «الوحدة العربية» فأحلتُه على آرائي السابقة، وقلتُ له: إني لم أُغيِّر موقفي؛ فأنا على الرغم من رغبتي في تكوين شخصيات فكرية مختلفة ووحدات سياسية مستقلة لكلِّ أممٍ من الأمم العربية والشرقية؛ فإني أحبُّ أن نتذكر دائمًا أننا إزاء الغرب لنا صفةٌ تجمعنا، وينبغي أن نحافظ عليها؛ فأوروبا اليوم عندما تبيَّن لها خطر الحروب التي تُقوِّض المدنيَّات، قد ارتاعت وأرادت أن تحافظ على مصير ما تسميه «الرُّوح الأوروبي»؛ فأقامت من أجل ذلك المؤتمرات، دُعيَ إليها كبار مفكري الأمم الأوروبية ليدرَءوا الأخطار التي تُهدد هذا الروح الأوروبي المريض! … ونحن الشرقيين لنا — من غير شكٍّ كذلك — ما نستطيع أن نسميه «الرُّوح الشرقي»!

إن طابعنا الفكري، وطريقة نظرنا إلى الأشياء، وتقاليدنا وإحساسنا بالجمال الذهني، ومشاعرنا نحو مظاهر الطبيعة المختلفة. أسلوبنا في التعبير، عن حقائقِ الأشياء، كل ذلك ينمُّ عن عقلية خاصة، وعبقرية مستقلة، لا ينبغي أن تتحلل وتتزايَل تحت طغيان مَوجة أقوى! … فإذا نادينا بالوحدة العربية؛ فإنما ذلك لندعم كتلة «الرُّوح الشرقي» أمام كتلة «الرُّوح الغربي»!

إحياء الثَّقافة العربية القديمة

سألتني مجلة عربية عن هذه المسألة، فقلت:

تسألونني كيف نعمل على إحياء ثقافتنا العربية القديمة؟ ... هل ماتت هذه الثقافة حتى نطلب إحياءها؟ ... إن الثقافات والحضارات لا تموت، ولكنها تُهضم في ثقافاتٍ أخرى وحضاراتٍ أخرى! ... فالثقافة العربية القديمة قد امتصَّتها واحتوتها الحضارة الأوروبية القائمة ضمن الذي امتصت وهضمت؛ فمادة الثقافة لا تنعدم، ولكنها تتحول إلى ثقافة جديدة، وتدخل في تركيب حضارة جديدة؛ فالقول بإحياء الثقافة العربية القديمة أو الثقافة الإغريقية القديمة، قولٌ لا أستطيع أن أفهم له معنًى.

فالحضارات إنما تقوم على الحضارات، وهيكل الحضارة القائمة إنما ينهض على طبقات متعددة من حضارات سابقة؛ فلو فرضنا المستحيل، وأردنا أن ننزل طبقات ونرجع إلى ثقافة قديمة بعينها وحالتها وكميتها الغابرة؛ فماذا نجد فيها غير شيء أوَّلي إلى جانب ثقافة العصر الحاضر؟

أما إذا كان المقصود من كلمة الإحياء، لا إحياء الثقافة القديمة بعينها وحالتها وكميتها، إنما المقصود إحياء المجد الغابر والمكانة والازدهار الذي لفت الأنظار إلى الثقافة العربية القديمة في عصرها، فهذا شيء آخر، وهذا أمر ممكن لو عملنا واجتهدنا في سبيل إحداث نهضة ثقافية، ويشعر بهزتها العالم المتحضر!

ووسائلنا في هذا، هضمُ كل ثقافة موجودة قديمة أو حديثة وإخراج ثقافة جديدة تنمُّ عن روحنا وشخصيتنا الشرقية، تستطيع أن تقف جنبًا إلى جنب مع الثقافتين العظيمتين الحاضرتين: اللاتينية والأنجلوساكسونية.

أما الوسيلة الفعَّالة لتوليد ثقافتنا الشرقية الجديدة؛ فإن الطريق إليها هو الطريق الذي اتَّبعته كل حضارةٍ من الحضارات المعروفة، أعني به: «القيام بحركة ترجمةٍ

واسعة النطاق»، ولا يُغني التلخيص عن الترجمة؛ فنحن بإزاء نهضة فكرية يجب أن تُشيَّد على دعائمَ قوية!

وكما أن عصر النهضة الذي تلا القرون الوسطى في أوروبا قام على حركة ترجمة المؤلفات الإغريقية، وكما أن نهضة الثقافة العربية القديمة في عصورها الزاهرة قامت على حركة ترجمة المؤلفات الشرقية الحديثة، الهندية والفارسية والإغريقية، كذلك نهضة الثقافة العربية الشرقية الحديثة يجب أن تقوم على ترجمة أمهات المؤلفات الأوروبية المعتمدة في الفروع المختلفة، وهذه المؤلفات من السهل معرفتها، فما من أمة متحضرة، وما من لغة حية إلا اتَّحدت في كتب خالدة معينة بالذات، لا بدَّ أن تعرف في لغتها وفي كل لغة حية؛ ففي فرع الأدب مثلًا لا نجد اليوم لغة حية ولا أُمة متحضرة، لم تنقُل إلى لغتها كل أعمال «هوميروس» و«سوفوكل» و«شيكسبير» و«موليير» و«جوته» ... إلخ. وفي الفلسفة والعلوم والفنون أسماء كهذه يضيق بي المقام عن تعدادها هنا، وهي على كل حالٍ معروفة لكل مثقف، ولكن المهم هو إجماع الرأي في الشرق العربي الحديث على القيام بحركة ترجمة عظيمة واسعة ... ولنُنفق في هذا السبيل الأموال؛ فإن ربحنا فسيكون عظيمًا، وسنشتري بهذا حياة لغتنا العربية، وسنضع بهذا كل أساس نهضتنا الفكرية التي قد يسجلها التاريخ كنهضةٍ للفكر الشرقي، لا تقلُّ في أهميتها عن نهضة الفكر الغربي التي ختمت القرون الوسطى.

أثر أوروبا في أدبنا الحديث

سألتني كذلك مجلةٌ شرقيةٌ أدبيةٌ عن مدى تأثير الأدب الأوروبي في أدبنا العربي الحديث، فقلتُ:

إن الحضارة لا تبلغ أوجَها، حتى تبسط جناحيها على العالم المحيط بها، فتؤثر في مجرى الأفكار في كل شعبٍ وقارة، وتغير من طابع الأساليب المختلفة، وتطبعها بروحها الخاص الذي جاءت به، كذلك كانت الحضارة الفرعونية والإغريقية والرومانية والمسيحية والإسلامية ... إلخ.

واليوم الحضارة القائمة هي الحضارة الأوروبية، ولعل الحضارة الأوروبية أشدُّ الحضارات نفوذًا في الشعوب على اختلاف ألوانها. وهل هذا يرجع إلى تسخيرها العلم والطبيعة في تيسير سُبل المواصلات مما لم يَعهَده العالم من قبل، فالسفن البخارية والقطارات السريعة والطيارات والراديو والسينما، كلها وسائل عجيبة فعالة في سرعة إذاعة الأفكار الأوروبية ونشرها ... إن الكرة الأرضية اليوم ليست إلا برتقالة في مِخلب هذا النسر الأوروبي، ولا مناصَ لأمةٍ من الأمم، أن تجهل أو تتجاهل هذه الحضارة، رضيَت أو كرهَت!

لذلك كان من الطبيعي للشرق — ولا سيما أمم البحر الأبيض — أن يتأثر — إلى حدٍّ كبير — بالحضارة التي تهيمن اليوم، لا على البحر الأبيض وحده، بل على كل بحار الأرض!

فالقول بأن الأدب العربي الحديث تأثَّر بالفكر الأوروبي هو البديهية بعينها، وينبغي لهذا الأدب أن يتأثر بالحضارة الموجودة الحية، إذا أراد أن يحيا، وأن ينتشر، وأن يفهم ويعترف به في الأرض عامة، وفي بلاد هذه الحضارات المختلفة، وجرى في شرايينه الدم الفارسي والهندي والرومي!

والقول بأن الأدب العربي الحديث كان أشدَّ تأثرًا بأوروبا بعد الحرب؛ هو أيضًا قولٌ يطابق طبيعة الأشياء؛ فالاتصال الوثيق بين الشعوب، واحتكاك الأفكار والمبادئ، وتقدم المواصلات، كل هذا حدث بعد الحرب، وبتأثير الحرب على نحوٍ فجائيٍّ قويٍّ يشبه الطفرة!

ولقد أدرك الأدب العربي من احتكاكه بأوروبا أن وسائل التعبير في الأدب قد تطورت، وأن الكُتَّاب على اختلاف جنسياتهم قد تواصلوا على أن يُلبسوا أفكارهم ثيابًا متشابهة في أغلب الممالك المتحضرة، كما ألبسوا أبدانهم ثيابًا متشابهة، هي القبعة والسترة، سواء في ذلك الإنجليزي والفرنسي والروسي والإيطالي … إلخ. فكان من الطبيعي أيضًا للأدب العربي الحديث أن يتأثر بهذا اللباس الأدبي الشائع، كما تأثر الزي الشرقي إلى حدٍّ كبيرٍ بالزي الغربي.

على أن الزي أو اللباس شيء، والروح أو الشخصية التي في جوف هذا الزي واللباس شيءٌ آخر! … ومهما يكن اتحاد الإنجليزي والإيطالي والإسباني والروسي في شكل الزي؛ فإن الدم الذي يجري في شرايين كلٍّ منهم مختلفٌ كلَّ الاختلاف!

لذلك أحبُّ أن أقول لأدباء العربية الحديثة: لا تخشوا مطلقًا من إلباس أفكاركم الأثواب الأوروبية، على شرط أن يكون طابع هذه الأفكار وروحها شرقيًّا محضًا، وأن يُحس القارئ الأوروبي إزاء أعمالكم أنه أمام نفسٍ غير نفسه، وشخصيةٍ غير شخصيته، وإن كان الرداء ليس غريبًا عليه، لأن الرداء ليس مِلكًا لأحد؛ إنه ملك الحضارة، والحضارة وليدة الحضارات التي سبقتها!

الأدب العربي في الماضي والحاضر

اعتاد الباحثون في الأدب العربي أن ينظروا دائمًا إلى الماضي، وأن يقصروا عليه كلَّ جهودِهم، وأن يخصُّوه بكل التفاتهم، زاعمين أنه لا أسلوب في العربية إطلاقًا إلا أسلوب «الجاحظ» ولا نثر عذبًا إلا عند «ابن المقفع»، حتى أدَّى هذا الزعم إلى حبس النشاط الذهني على آثار الماضي وإلى الاعتقاد بأن مجد الأدب العربي الذي لن يعود إنما كان في الماضي!

أثَّرت هذه العقائد في تفكير الشرق العربي، وكانت هي علَّة الجمود العقلي الذي أُصيب به الشرق على مدى أحقاب، حتى شَعَر الناس كأن باب الاجتهاد قد أُغلق، فما عادوا يسمحون لمداركهم أن تتذوق غير الأدب القديم، وإن لم يفهموا مراميه، ويشعروا بملابسات حياته، وما عادوا يسمحون لأدباء جيلهم أن يخرجوا عن دائرة تقليد هذا القديم، وإن أحسوا من أنفسهم القدرة على إبداعٍ ما يناسب روح العصر الذي يعيشون هم فيه!

غير أن التحرر الفكري الذي انطلقَت نسماته أخيرًا على ربوع الشرق قد عدَّل كثيرًا من هذه النظرات؛ فنحن اليوم لا نخشى أن نُبدع تحت وحي الحاضر إنتاجًا يختلف عما أُبدع تحت وحي الماضي، ولا يخشى الناسُ أن يتذوقوا ويعجبوا بنِتاج الحاضر، كما يفعلون بنتاج الماضي، ولا نخشى أن نضع الماضي والحاضر في ميزان المقارنة وميدان البحث … نعم … نحن اليوم قد تعلمنا أن نعتبر الأدب العربي شجرة واحدة نامية نستطيع أن ننقل عيوننا بين جذعها وفرعها وأغصانها، وأمسها ويومها وغدها! … بل إننا لا نتحرَّج اليوم من الاعتقاد بأن مستقبل هذا الأدب قد يكون أينعَ وأزهرَ من ماضيه، على أن الجرأة في الحكم ما زالَت تُعوِزنا.

أذكر يومًا جاءني فيه أستاذ من أساتذة الأزهر؛ فتحادثنا قليلًا في الأدب العربي، فقلتُ له: إن أساليبنا اليوم في الكتابة خيرٌ من أساليب كتَّاب العرب الأقدمين من بعض الوجوه! ... فنظر إليَّ دهشًا، كأنه لا يصدق أُذنه؛ فأدركت أن قداسة القديم ما زالت تنسج على هذا العقل الجامد خيوط العنكبوت!

ولبثتُ وحدي أفكر في الأمر، وأُسائِل نفسي: ما وجه العجب في هذا التفضيل؟ ... إني من المعجبين بفنِّ الكثير من الأقدمين، أمثال: «الجاحظ» و«ابن المقفع». ولكني مع ذلك لا أستطيع أن أقضي بغير هذا الحكم! ... على أن من التعسُّف أن تقوم المقارنة على هذا النحو، فنحن الآن في عصر مختلف كل الاختلاف عن العصور السابقة ... حقًّا إن إدراكنا اليوم للفن أوسع ولا ريب من إدراك «الجاحظ» و«ابن المقفع»، كما أن إدراك «أينشتين» للعلم أوسع من إدراك «فيثاغورس»! ... هذا لا يمكن أن يقوم فيه جدالٌ ... إنما الأمر الذي يصح أن نجادل فيه هو؛ أي الآداب، وأي الكتَّاب استطاع أن يملأ عصره، وأن يُعبِّر عن روح عصره، وأن يؤثر في عصره؟ ... إنهم يقارنون أحيانًا بين «فولتير» وبين «برنارد شو»! ... في رأيي أن الأخير قد اكتملت لديه من الوسائل الفنية ما لم يتهيأ مثله للأول! ... إن «فولتير» لم يبلغ قطُّ في قصصه التمثيلي ما بلغته قصص «برنارد شو»، ولكن أيهما استطاع بكتاباته أن يهزَّ عصره هزًّا، وأن يُحدث في تفكير عصره تيارات قوية، وأن يفرض وجوده على العروش والتيجان، وأن يلقي بذور الانقلابات المقبلة في نفوس الشعوب؟ ... ثم سؤالٌ آخر يجوز فيه الجدل؛ أي الأدبين، العربي القديم أو الحديث، استطاع في جملته أن يقف إلى جانب الآداب الأخرى المعاصرة ليؤدي معها رسالته إلى البشرية؟ ... إن المقارنة بين أدب الأمس في ذاته وأدب اليوم في ذاته يؤدي غالبًا إلى ترجيح أدب اليوم ... إنما المقارنة يجب أن تكون بين أدب الأمس في عصره وأدب اليوم في عصره ... وهنا تختلف النتيجة بعض الاختلاف!

لا أحبُّ مع ذلك أن أُصدر أحكامًا سريعة ... فإن الحكم يقتضي أسبابًا مطولة ... وإن المقام ليضيق دونَ ذلك! ... إنما أحبُّ في ختام كلمتي أن ألفت نظر هذا الجيل إلى أن يأخذوا الأدب العربي الحديث على سبيل الجِد، وأن يُكثروا من المقارنة بينهما إذا شاءوا، كما يقارن الإنسان بين الزهرة والزهرة في شجرةٍ واحدة، وبين الثمرة والثمرة في أعوامٍ متعاقبة؛ فإن في ذلك تذكيرًا لهم بأن الأدب العربي كائن حي يتطور ويتغير، ويتلون ويتأثر باختلاف الفصول والعصور!

كرامة الفكر

القوة الحقيقية للقلم هي أن يستطيع أن «يقول ما يريد، وقتما يريد أن يقول!»، والرجولة الحقيقية هي أن يبذل المرء دمه وماله، وراحته وهناءه، ودعته واطمئنانه، وأهله وعياله، وكل أثيرٍ عنده وعزيز عليه، في سبيل شيء واحد: «الكرامة»، والكرامة الحقيقية هي أن يضع الإنسان نفَسه الأخير في كفَّة، وفكرته ورأيه في كفَّة، حتى إذا ما أرادت الظروف وزنَ ما في الكفتين رجحت في الحال كفَّة رأيه وفكره! ... كل عظماء التاريخ كانوا كذلك، بل إن مصر الفقيرة اليوم في العظماء قد عرفت ذات يومٍ رجالًا كثيرين من هذا الطراز! ... رجالًا لم يترددوا في تضحية كل شيء من أجل فكرةٍ ... والنزول عن كل متاع من أجل رأي ... بمثل هؤلاء الرجال ربحت مصر كثيرًا في حياتها المعنوية والفكرية، بل إني لا أبالغ إذا قلت إن الأمم لا تُبنى ولا تقوم إلا على أكتاف هؤلاء! ... وإن الخطأ المخيف هو يوم تخلو أمة من أمثال هؤلاء! ... نعم، وإنه ليُخالِجني الآن شيء من القلق؛ فناموس اليوم هو وَطء الفكرة بالأقدام ركضًا خلف الجاه الزائف والمال الزائل!

لقد حُقَّ لنا جميعًا أن نسأل هذا السؤال: هل يطول غضب الله علينا فلا يظفرنا بهؤلاء العظماء الذين يستطيعون أن يردوا الاعتبار إلى قيمة الرأي. ويُطهروا النفوس من درن المادة، ويعيدوا المُثل العليا النبيلة إلى مجدها القديم؟

هذا قول قلتُه منذ أعوام، وأقوله اليوم أيضًا ... وأنا واثقٌ أن في مصر عددًا كبيرًا من العقلاء الذين يستطيعون تمحيص المسائل، وبحث المشكلات، وإبداء الرأي الذي ينفع البلاد ... ولكنهم يطوُون الرأي في الصدور، أو يهمسون به في الآذان ... ولا يعرضونه بجرأة، أو ينادون به في إيمان، خشية أن يتعرضوا لهجوم، أو يلحق مصالحهم ضرر موهوم ... هذا التنحي من الناضجين والأكفاء عن المشاركة في توجيه الرأي العام، هو الذي يوجد

في مجال الآراء حالة تشبه الحكم المطلق أو الدكتاتوري؛ إذ تَستبد فكرةٌ واحدةٌ بعقول الناس، ويطغى رأيٌ واحد على تفكير الجماهير ... فتؤمن دون مناقشة بالقول الغالب، وتنساق دون وعيٍ بالرأي الجارف ... فنحن — في حقيقة الأمر — الذين نفرض بأنفسنا على أنفسنا الحكم المطلق! ... لا دستورنا، ولا نظام الحكم لدينا ... نظامنا الديمقراطي لا يمنعنا من الحرية ... ولكننا نحن الذين ننزل عنها راضين؛ لأننا لا نريد أن ندافع عنها أو ندفع عنها ... إننا نُفضِّل دائمًا أن نقبل رأي غيرنا الذي لا نؤمن به، على أن ندفع في سبيل رأينا بعض الجهد أو بعض الغُرم ... ما من نظامٍ في الوجود يكفُل الحرية لإنسانٍ يخشى أو يكسل أو يهمل في إبداء رأيه الحر!

إذا أردتم الحرية والكرامة الآدمية فافحصوا كل رأي بعقولكم. ولا تقبلوا جزافًا وبغير تفكيرٍ آراء غيركم، حتى ولو كان أصدقَ أصدقائكم!

إن الكلب على مروءته مُحتقَر ... لا لشيء إلا لأنه قبِل بلا صعوبة أن يضع أصدقاؤه في عنقه قيدًا وإن كان من ذهب!

من النيل إلى السين (١)

قرأتُ رسالتك إليَّ على وجه «الأهرام» ذلك الوسيط الصادق بيني وبينك، والرسول الأمين بيننا وبين الناس، نحمِّله ما شئنا وما شاءت أفئدتنا من آمالٍ وأحلام، بل هو ذلك الحَمام الزاجل لهذا العصر، نطلقه بين ضفتَي نهرَين، ونافذتَي قارتَين!

إني أكتب إليك الآن هذا الرد وأنا أُطِل على النيل، وقد اتخذ لون الفضة في هذا الشتاء، وأتخيلك الآن واقفًا تنظر إلى السين في لونه الفيروزي الصافي، ماشيًا الهوينى تتصفح بين آنٍ وآنٍ الكتب القديمة المعروضة فوق حاجز النهر، كما كان يفعل صديقك «أناتول فرانس».

نعم، إنك تثير في نفسي ذكريات … رسالتك قد أعادتني إلى ذلك الماضي يوم كنت أقطع كل صباحٍ ذلك الطريق بين «كاتدرائية نوتردام» حتى جسر «دورسيه» في الضفة الشرقية، لا أترك كتابًا حتى أتصفحه، كان نصف تحصيل العلم في أول أمري من تصفح الكتب خلسة بغير مقابل، ألتقط من كل كتابٍ فكرة أو فكرتَين، كالعصفور يلتقط من كل سُنبلةٍ حبة أو حبتَين، وأتحاشى أن تراني عين البائع المسكين، وهو أيضًا فنانٌ في أغلب الأحيان، يُهمُّه اقتناء النادر من المجلدات ويَزهو بعرضها أكثر مما يهمه أمر بيعها. ولقد أضحكَتني ذات مرةٍ عبارةٌ في كتابٍ مشهورٍ كنت أتصفحه، فباغتَتني نظرة البائع فخجِلتُ أن أطرح الكتاب بعد ذلك، فاضطررت إلى شرائه بالمال الذي ادخرتُه لغذائي.

نعم، لقد كنا هناك نجمع أعقاب العلم من كل مكان، كما يجمع الغلمان في مصر أعقاب «السجاير» … إلى أن اتسعت أذهاننا بالمِران، فصرنا نلتهم الأسفار التهامًا.

إن «باريس» عندنا لم تكن قط امرأة، إنما كانت كتابًا مفتوحًا هو «سِفر الحياة العليا».

أما هنا ... فالنيل جميل حقًّا، لست أنكر ذلك، وإني لأرى الآن طرف «الجزيرة» الممتد في الماء، كأنه مُقدَّم سفينة، وأبصر فيها النخيل والأشجار خضراء داكنة، كأنها ليلٌ شِعريٌّ يَخفى تحت سترة المحبين، ولكني لا أرى على ضفتَي هذا النهر الرحيب العظيم غير قصورٍ صغيرةٍ متناثرةٍ بيضاءَ وصفراءَ وخضراء، كأنها بعض طيور الماء ... جمالٌ طبيعيٌّ لا ريب فيه، ولكنك لا ترى فيه بعدُ يدَ الحضارة النشطة، فلا حواجزَ ممتدة، ولا تماثيلَ منصوبة، ولا كُتبَ معروضة.

أعترف لك أني لا أقرأ في مصر كثيرًا، وهل في مصر بعدُ شيءٌ يدفع إلى القراءة؟ ... إن مصر ليست كتابًا مفتوحًا، إنما هي هيكلٌ قديمٌ مغلقٌ يحوي كنوزًا، قد ضاع مفتاحه، فعلينا قبل كل شيءٍ أن نفتح بابه ونستخرج ما فيه. ليس من الخير أن نظل طول الزمن نتغنى بمفاخر هذا الهيكل ونحن نائمون على أعتابه، ولكن المصلحة كلها في أن نُذكِّر أنفسنا دائمًا، بما فينا من كسلٍ ونقصٍ وخمول، وأن نهبَّ على أقدامنا للعمل.

وعلى ذِكر العمل أريد أن أسألك سؤالًا:

أما زال المقيم في «باريس» يُحس هذا الجو المعنوي المشبع بالنشاط الذي يغري بالعمل المتواصل دون كلال؟ لعل أهل مصر لا يعرفون هذا الجو، وإنك لتستطيع أن تخدم بلادك لو وصفته لنا فيما تصف، هذا الجو الذي ينتشر في كل مكان، في القهوة حيث ترى الجالسين يكتبون ويقرءون أو يتحدثون حديثًا خافتًا سريعًا كله عزم، ثم يتناولون قهوتهم السوداء في جرعةٍ أو جرعتَين، ويخرجون قافزين إلى «الأتوبيس» أو هابطين إلى «المترو» السفلي لينصرفوا إلى العمل، فلا جلوس مستديمًا في غير طائل، كما نفعل في مقاهينا نُحملق بأبصارنا في الرائحين والغادين، ولا قهقهة نصخب بها ونحن ننفخ دخان الشيشة، ولا مناقشات مدوية في العلاوة والترقية، ولا صيحات للعربدة، ولا ضوضاء بسبب النرد.

نعم ... أوليست تلك كل حياة الملايين المصريين في أوقات فراغهم، بعد عملٍ قليلٍ لكسب اللقمة؟ فهي بالقياس إلى ما تراه الآن حولك في «باريس» لا يمكن أن تسمى حياة! ... فالحياة هي العمل واللهو، ونحن لا نعرف حتى كيف نلهو، لأننا لا نعرف كيف نعمل. ولعل مصيبة العاملين في مصر — وهم ندرةٌ — أنهم لا يعرفون أين ولا كيف يلهون، بعد نهارٍ شاقٍّ ممتلئٍ بالإنتاج، فلا أوبريت فنية مصرية، ولا مسارح تلقى فيها شموس الهيئة الاجتماعية، ولا «صالونات» لنساءٍ عظيماتٍ تتقابل فيها أساطين البلاد، ولا أندية ليلية راقية يعرض فيها ظرفاء الأدب والشِّعر والفن كلماتهم اللامعة، ونكاتهم البارعة،

وأخبارهم ونوادرهم وأغانيهم ... لا شيء في لياليا المصرية يمكن أن ينمَّ عن الروح المصري والذوق المصري، بينما كل شيءٍ في الليالي الباريسية يدل على الروح الباريسي والذوق الباريسي.

إن الحياة بمعناها الرحب العظيم لم تدبَّ بعدُ في «وادي النيل» إنما تلك الحياة الصغرى التي لا تخرج عن شئون الأكل والشرب والمتعة الوضيعة هي وحدها المعروفة الآن.

وبعد، فإني أرجو لك إقامة طيبة في محيط تلك الحياة الحقيقية التي أنت فيها الساعة، وأرجو منك أن تحرص على كل دقيقةٍ من دقائقها، وأن تروي ظمأك بحُسنها العلوي، وتُشبع نفسك بجمالها الروحي.

وهنيئًا لك.

من رسالة إلى «أحمد الصاوي محمد»
في عام ١٩٣٧م

من النيل إلى السين (٢)

جاء في آخر رسالتك الماضية ذِكرٌ للأكل والشرب، وقلتَ بحقٍّ إننا حتى في هذا أيضًا لم نبلغ شأن الأمم المتمدينة ... صدقتَ والله، صدقت! إن كل شيء في الحضارة موضوع تفنن وابتكار ... إن الرجل المتحضر هو الذي يعرف كيف يعمل، وكيف يأكل، وكيف يلهو! وما من أدب من الآداب العريقة إلا وفيه فصلٌ عن الطعام؛ فإذا فتحت «العقد الفريد لابن عبد ربه» أو «مقامات بديع الزمان» وجدت أوصافًا تُسيل اللعاب في ألوان «السكباجة» و«الطهباجة»، وإذا راجعت كتاب «بول ربيو» الأديب الفرنسي عن فنِّ الأكل لوجدت فيه هذه العبارة الظريفة: «إن استكشاف لون جديد من ألوان الطعام لأنفع للإنسانية من استكشاف نجم جديد من نجوم السماء!» وإنك لتعلم فيما تعلم عني أني أحب الجيد من الطعام، وأني كثير التبديل والتغيير للطهاة، فبحقي عندك إلا أكلتَ لي وباسمي ثلاثة أزواج من «المحار البرتغالي الأخضر» وطَبَقًا من «الكاسوليه» التولوزيه التي أحبها ... ولا أوصيك بحساء البصل فأنت أدرى مني أين تجده وتطلبه ... وبعد! ... أمَا وقد فرغنا من أمر بطوننا فلنتجه إلى شئون عقولنا ... لقد راقني وصفك للإضراب العام في «باريس»، وقولك إن تعطيل طرق المواصلات من «ترام» و«مترو» و«أتوبيس» في بلدٍ كباريسَ لم يعطِّل لحظة نشاط الباريسيين! ... هذا صحيح! ... إن ضرب باريس نفسها بمدافع الألمان أيام الحرب لم يؤثر لحظة في حياتها العقلية والذهنية والاجتماعية؛ فقد كان رجال العلم في معاملهم وقاعات بحثهم هم هم؛ ينظرون إلى عالمهم اللانهائي من خلال «الميكروسكوب» و«التلسكوب»، ورجال الأدب هم هم؛ يستقبلون تحت قباب المجامع الأدبية زملاءهم بذلك النثر الذي سيبقى على التاريخ، ورجال الفن هم هم؛ يعرضون نتائج ابتكارهم، واتجاهات مذاهبهم في المعارض والصالونات ... والمسارح هي هي؛ تعجُّ بالمشاهدين والناقدين ... وأندية الليل هي هي؛ بظُرفها وشِعرها وخِفة رُوحها!

أما في مصر، فكل هذا غير معروف؛ فإنه ليَكفي أن تنشر جريدة في صفحتها الأولى أو التاسعة خبرًا سياسيًّا هامًّا، حتى تجدَ مصر كلها من أقصاها إلى أقصاها لا تتكلم إلا في هذا الخبر، ولا تقلق إلا بترديد هذا الخبر، السبب في ذلك بسيط، أن حياتنا فوضى، أو هي حياة أولية «سديمية» لم تتكون فيها عوامل منظمة متألقة يعيش فيها الناس ... فإنك لا تستطيع مثلًا أن تقول في مصر «عالم الأدب» و«عالم العلم» و«عالم الرياضة» و«عالم السياسة» ... إلخ إلخ، بالمعنى المفهوم لهذه العوالم في أوروبا؛ فإن كل طائفة من هذه الطوائف عندنا لم تستطع حتى الآن أن تُنظم نفسها تنظيمًا يؤهلها لحصر جهودها المنتجة في منطقة معينة بالذات! ... وقد نشأ عن ذلك أن الطائفة التي في يدها القوة واللقمة، وهم رجال السياسة، قد برز عالمهم كالشمس فطغى على الآخرين، ومحا من الوجود تلك العوالم الأخرى النافعة التي كان ينبغي ألا تقلَّ عنها إشراقًا، فنحن إذَن لا نعيش كما تعيش الأمم الكبرى، ومجتمعنا على وضعه الحاضر مجتمع ابتدائي؛ فإلى أن يهتم الناس بأشياءَ أخرى غير السياسة وأرقى من السياسة — وكل شيءٍ في الوجود هو في الحقيقة أرقى من السياسة — إلى أن يُعنى الناس بشئون الفكر ولذَّات الفكر، وينفقوا في الكتب والمتاحف والمعارض وقاعات المحاضرات بعض اللحظات ... إلى أن يكون لرجل العلم ورجل الأدب ورجل الفن في مجتمعنا عين الاحترام والاهتمام الذي يقابل به رجل السياسة ... إلى أن تكون للمظاهرات الأدبية والعلمية عين الهزة والضجة التي تكون للمظاهرات السياسية ... إلى أن نترك هؤلاء البضعة القليلة من السياسيين المحترفين يصيحون ويصخبون في نواديهم، وننصرف نحن المفكرين إلى نوادينا ومجامعنا الفكرية، ونحن الرياضيين إلى نوادينا الرياضية، ونحن الماليين والاقتصاديين إلى نوادينا المالية والتجارية ... إلى أن تتعدد نواحي النشاط في البلد، ويذهب هذا النوم والخمول الذي شمل كل جانبٍ إلى ذلك الجانب العقيم: السياسة ... إلى أن يحدث كل هذا فلا أمل في المجتمع المصري؛ فلندعُ الله أن يتدارك هذه الأمة برحمته، فهو مُغير الأحوال، والسلام!

من رسالة إلى «أحمد الصاوي محمد»
عام ١٩٣٧م

من مشكلات الفكر

أثارت صحيفة إنجليزية مشكلة ليست يسيرة الحل ... وهي فيما يبدو من الظواهر الشائعة اليوم في كثير من الأمم ... تلك هي مشكلة الأدباء والمؤلفين وموارد رزقهم؛ فلقد كادت تنقرض الآن أسطورة المؤلف الثري ... ذلك أن أزمة الورق في إنجلترا، ومشكلات النقد، وقيود الاستيراد الدولية، أنقصت إلى حدٍّ كبير عددَ المطبوع من الكتب؛ فلم يَعُد ربحه يكفي لإطعام المؤلف ... وليس كل مؤلفٍ يستطيع فوق ذلك أن يضمن لكتابه النشر، حتى وإن كان من المجيدين أو المعروفين؛ فإن للناشرين حصة محدودة من الورق، وعلى كل منهم أن يَعُد قائمة بمؤلفيه، ويُعيِّن لكل نوبته في أسبقية الطبع ... أمام كل هذه العقبات: ماذا يصنع المؤلف لينتج ويعيش؟ ... استطلعت الصحيفة آراء طائفة من الأدباء ... فأجمعوا رأيهم على أن تأليف الكتب لم يعُد يضمن رزقًا لمؤلف، وأن على الأديب أن يتخذ له حِرفة من الحِرف، أو وظيفة من الوظائف، أو عملٍ بإحدى الصحف!

إنها حقًّا لمحنةٌ أن يعجز الفكر الصرف عن أن يكفل لصاحبه حياة مستقلة في هذا العصر! ... ولكن ما هو الحل؟

في فرنسا تكفَّلت الحكومة عقب الحرب الأخيرة بشراء بعض مقالات الأدباء، لتقيهم شرَّ الموت جوعًا، وجعلت توزِّع هذه المقالات على الصحف، داخل بلادها وخارجها، قاصدة من وراء ذلك إلى نشر الدعاية للثقافة الفرنسية ... ولكن هذا ليس بالحل الطبيعي الذي تلجأ إليه حكومة في كل حين!

أما في بلادنا فالمشكلة قائمة على أشدِّها ... فالحكومة أبعد من أن تُعنى بتأليف أو مؤلفين ... ومع أن عدد الأدباء المنقطعين لحِرفة القلم قليلٌ ... إلا أنهم قد تُركوا لمصايرهم يدبرون لأنفسهم أمر معاشهم ... ولما كانوا لا يحسنون عملًا غير حمل القلم فقد احترفوا الكتابة على كُرهٍ منهم!

تُرى ماذا يحدث لو التفتت إليهم الحكومة قائلة: «يجب أن تنقطعوا للفكر الصرف كل الانقطاع ... أما معاشُكم؛ فإني سأدبره لكم.»

إذا فعلت الحكومة ذلك ثم اقتضت من الأدباء بعدئذٍ الثمن، وأرادت تسخيرهم في خدمة أهدافها السياسية أو أهوائها الحزبية؛ فإن الحال تنقلب شرًّا مما كانت ... ولخيرٌ للأديب أن يموت جوعًا من أن يبيع روحه لشيطان السلطان ... ولكن ... لنفرض أنه وُجدت الحكومة التي تترفع عن هذا الصَّغار! ... ولنفرض — أكثر من ذلك — أيضًا أنها تورَّعت عن التدخل في إنتاج الأديب، وأنها جرَّدت من سلطانها حارسًا يحمي حرية الأديب في التفكير والإبداع.

لنفرض أن هذه الحكومة أو «العنقاء» يمكن أن توجد ... فماذا تكون الحال؟

ما من شكٍّ أن الأدباء سيتوفرون على الفكر الخالص وحده ... وسيكرسون جهودهم لخدمة الفن الرفيع، بعيدًا عن كل اعتبارٍ ... وسيُحلِّقون في أدبهم وتفكيرهم تحليقًا قلَّ مَن يتابعهم فيه، أو يلاحقهم في التصعيد إلى قممه!

إنه الفكر المستكفي بذاته، قد امتطى صهوة السحب ... ليشرف من سمائه على جموع الناس!

على هذا الوضع يُخيل إلينا أن المسألة قد حُلَّت ... ولكن صوتًا من أعماق الجموع يرتفع قائلًا: أنسيتم أنكم في عصر «الجماعات» البشرية المتيقظة، التي أصبحَت لها حقوقٌ في كل زاد مادي ومعنوي؟! بأي حقٍّ تحبسون عنها هؤلاء الأدباء في تلك الأقفاص المرتفعة ... وتدثرونهم بهذه السحب القصية؟! ... لماذا تحرموننا — نحن الشعب — هذا الاتصال المباشر بهذه العقول الممتازة؟! ... نحن — الناس في جموعها وألوفها — لا تصل أيدينا الفارغة الفقيرة إلى الصحف السيارة والمجلات المنتشرة ... أتريدون أن نقرأ فيها الفارغ الفقير من الكلام في كل الأحوال؟ أليس من حقنا أن نلقى فيها أديبًا من هؤلاء الأدباء الذين تريدون أن تجعلوهم وقفًا على الخاصة؟! ... إلى متى هذه النظرة الأرستقراطية القديمة إلينا؟ ... إن العالم قد تغيَّر ... وإن الأديب الذي يُنكرنا، ويأبى أن ينفعنا، وأن يمدَّ يده إلينا — ولو في أعماق طيننا، وفي حمأة وحلنا، وفي وصمة جهلنا — لهو أديب مترَف بغيض، بل هو كمدعي النبوَّة المترفع الكاذب الذي يخشى على ثيابه أن تُدنسها أوساخ الطريق ... وعلى سمعته أن تُلطخها خطايا الفجرة ... فلا يهبط من مقصورته العالية لينتشل من الجماهير ولو نسمة واحدة صالحة للهداية أو الرقي!

بين هاتَين الصورتَين، ماذا يصنع الأديب؟ ... وإلى أيهما يتجه؟ إلى الفن الخالص الذي يناديه من أعلى ... أو إلى الجموع العطشى التي تناديه من أسفل ... أو يظل معلقًا كالقرد ... يدٌ في العلو ويدٌ في السُّفل؟!

مشكلةٌ أخرى لا بدَّ لها من حل!

بين جيلَين

جاءني ذات صباح شابٌّ ... وقدَّم إليَّ رواية مصرية أَلَّفها ونشرها في كتابٍ ... وهو مزهوٌّ فخور منتعش، كشجرة آتت ثمارها ... فحملتُ كتابه في يدي بعناية وحنان، أقرأ العنوان ... ثم شرعت أُقلِّب بعض الصفحات، وإذا حركة بالباب تبلُغ أُذني، فرفعت عيني فوجدت فتاة لطيفة المظهر أنيقة الملبس، مشرقة الوجه، وضَّاحة الجبين، تستأذن وتدخل وتجلس، قبل أن تمنحني وقتًا لرد أو جواب، ولم تنتظر مني كلامًا؛ فقد انطلقَت هي تقول بلسان فصيح وجَنان ثابت:

إني قارئة ساخطة ثائرة ... جئتُ أوجِّه إليك سؤالًا واحدًا: ماذا تصنع الآن؟ ... مضى العام تلو العام، دون أن يظهر لك كتابٌ في السوق: أهي الصحافة التي شغلَتك؟

وأشارَت بيدها إلى جوِّ الحياة الصاخبة الذي يحيط بمكتبي!

والتفتُّ إليها لأجيبَ ... ولكن الشاب سبقني صائحًا بحماسةٍ: أمِن الضروري أن يؤلف هو وينشر؟ ... أليس في الدنيا كُتب أخرى جديرةٌ بالقراءة تظهر في كل حين؟!

فنظرَت إليه الفتاة دهِشة، ثم نقلت بصرها إليَّ كالمتسائلة! فوجدتُني أهزُّ رأسي موافقًا مصادقًا مؤمِّنًا ... فعادَت إلى الشاب قائلة: إني أسأله هو عمَّا يشغَله!

فقال الشاب بقوة وتدفق: ما لنا وما له! ... فليشغَل نفسه بأي شيءٍ خيرًا من أن يملأ مائتين أو ثلاثمائة صفحةٍ يجعلها قصة يتقدَّم بها في كل موسمٍ ... حتى يُقال إنه دائبٌ على الإنتاج ... ما كان أسهلَ عليه أن يكرر نفسه! ... ويخرج حلقات لا تنتهي على نمط «عودة الروح» أو «عصفور من الشرق» أو «الرباط المقدس» أو «المسرحيات الاجتماعية والذهنية» أو يستغل على الأقل كتب التاريخ، يستخرج منها قصصًا لا تنفَد،

وينشر في كل موسم ما تشائين ويشاء أمثالك لمجرد النشر أو الكسب أو إثبات الوجود أو إظهار النشاط!

– أتراه يستنكِف من فعل ذلك ... أو لا يرى له جدوى؟!

– اطرحي عليه هذا السؤال ... ها هو ذا أمامك.

فالتفتَت إليَّ الفتاة لحظة، ثم انصرفت عني يائسة إلى الشاب: إنه يهزُّ رأسه دائمًا ... أجِب أنت.

– ولماذا أُجيب عنه ... ولماذا تُصرين على الكلام في شأنه؟ ... إذا أردتِ فإني أحدثُك عن نفسي. فأنا ولا شكَّ مُلمٌّ بكل تفاصيلها، وأنا أديب ومؤلف وروائيٌّ و...

– عجبًا! ... ولكني لم أجِئ لأتحدث إليك!

– هذا خطأ منكِ أيتها الآنسة! لو كنت مكانك لسألت توًّا عمن يكون هذا الشاب الموهوب الذي تدخَّل في الحديث بهذه الشجاعة، وطلبتُ أن يُقدَّم إليَّ، وأن يحدثني عن كتابه الذي ظهر حديثًا، لأطمئن على أن الأدب بخيرٍ ... سواءً ألَّف صاحب هذه الحجرة أو لم يؤلف، ونشر كتبًا أو لم ينشر ... عاش أو لم يعش.

– إنها حقًّا لشجاعة، بل جراءة! ... إنك تتدخل على نحو!

– لا تنظري إلى صاحب الحجرة ... إنه لن ينقذك مني، ولن يتكلم ... ولن يَبتَّ برأي ... إنه كما ترين يجيبك دائمًا بهزِّ رأسه.

– هذا صحيح، وأنت، هل تعرفه منذ زمنٍ طويل؟

– أعرفه منذ خمس عشرة سنة، كنت يومئذٍ في الخامسة عشرة، وكان أهلي في البيت يتحدثون عن «عودة الروح»، ولكني لم أحفل بقراءتها شخصيًّا إلا عندما بلغت العشرين ... في ذلك الوقت نشأتُ مع كثيرين من أقراني في الجامعة وشباب جيلي، وشببتُ معهم وهم يلغَطون ويتناقشون في الرواية المصرية الطويلة التي شقَّ طريقها ... ويُقسِمون بحماسة الصِّبا إنهم سوف يمضون في هذه السبيل، ويُخرجون يومًا روايات مثلها وخيرًا منها عن حياتنا القومية، وقد برَّ بعضهم بوعده، ونشر قصصًا على جانبٍ كبيرٍ من الطرافة والإتقان! ... وأستطيع أن أؤكد لكِ — أيتها الآنسة — أني أحد هؤلاء النابغين! ... أقولها بكل صراحة، وبكل تواضع!

– إني متأكدةٌ من صراحتك وتواضعك ... وعلى الرغم من كل شيء، ثِق أني بدأت أهتم بأعمالك ... ولكن، ألا تسمح لي قبل ذلك أن أعرف شيئًا قليلًا عن الأمر الذي جئتُ اليوم من أجله؟!

– تفضلي! ... ماذا تريدين أن تعرفي؟

– السؤال بالطبع ليس موجهًا إليك ... أردتُ أن أعرف كيف يترك فنَّه العالي، لينزل إلى الكتابة في الصحف.

– والله لقد حيرتُموه! ... إذا ارتفع بفنِّه قُلتم كيف لا يهبطُ إلى الناس؛ يشعر بشعورهم، ويدرُس أحوالهم ويعرف أنباءهم، ويعرض شكَاوَاهم، ويُدافع عن حقوقهم! ... فإذا فعل عُدتم فقلتم: أين العُزلة التي يكتب فيها لطائفة من الخاصة؟ نصيحتي لكِ أيتها الآنسة ألا تُلقِي هذه الأسئلة السخيفة! ... لا تؤاخذيني! ... إن مَن يكتبُ لمئات الألوف، ويستطيع أن ينفعهم بعض النفع، ويرتفع بهم بعض الارتفاع، لهو رجلٌ يؤدي خدمة عامة!

– وفنُّه؟!

– ما من فنانٍ يستطيع أن يهمل فنَّه وإن أراد! ... ولعلكِ تخلطين بين الفن وبين إنتاج الكتب في كل موسم! ... تخلطين بين الفنان والمُعلم، بين المنتج والتاجر! ... ماذا تُسمين ذلك الذي يسكُت عندما ينبغي له السكوت ... عامين أو ثلاثة أو خمسة أو عشرة، يدرُس خلالها نفسه من جديدٍ ويزِن تأملاته، ويختزن تجاريبه، ويراقب أحوال الناس، وتطورات المجتمع ... ويراجع أعماله القديمة، ويبحث — صامتًا صابرًا — عن طرائق للتعبير الفني جديدة! ... إن النشر يا آنستي سهل، ولكن الصعب هو البحث الطويل في الظلام! ... ولعلكِ تجدينه الساعةَ مشغولًا بالبحث عن نوعٍ من الفن، لا علاقة له بكل ما عالجَ من قبلُ ... «الفن طويل والحياة قصيرة»! ... تلك كلمة «جوته» المشهورة!

إن مَن يريد أن يُمسك بتلابيب «الفن»، في حياته المحدودة ... يجب أن يقفز فوق كل تكرارٍ لا غناء فيه! ... وأن يركض خلف سرابه في كل طريقٍ حتى القبر!

وسكت الفتى، ونظر إليَّ كأنه يسائِلني: هل أصبت؟ ... فتلقَّى مني الجواب هزة من الرأس أيضًا ... أما الفتاة فقد أكبرَت كلام الشاب الأديب وقالت: اسمح لي أن أُبدي إعجابي بفهمك للفن ... وأن أسألك عن كتابك! ... فإني مشوَّقة إلى قراءته ... في أي المكتبات أجده؟

– آسفٌ كل الأسف يا آنسة! ... إني لم أجِئ هنا إلا بنسخةٍ واحدةٍ ... ولكن إذا أذنتِ فإني أرافقكِ الآن إلى أقرب مكتبة، وأقدم لكِ نسخة مُمضاة ... ألديكِ ما يُبقيكِ هنا الساعة؟!

– لا داعي لبقائي ... نستطيع أن نذهب توًّا!

ونهضَت في الحال وحيَّتني تحية سريعة، وانصرفت ... ونهض الشاب لينصرف في إثرها بعد أن حيَّاني هو الآخر تحية سريعة، ولم يكَد يبلُغ العتبة حتى بدا له رأي، فعاد أدراجه إليَّ واقترب مني هامسًا راجيًا: المكتبات الآن مغلقة ... أكون شاكرًا لو تفضَّلت، ورددتَ إليَّ هذه النسخة لأهديها إليها! ... أما أنتَ فسأحضر لك نسختكَ غدًا ... إن المستقبل أولى من الماضي!

فما تمالكتُ أن مددتُ يدي إليه بالنسخة ... وأنا أغمز له بعيني راضيًا باسمًا: صدقت! ... وإني لأراه مستقبلًا مشرق الوجه وضَّاح الجبين!

في السياسة والاجتماع

«هستيريا» السياسة

أتسمع هذه الضوضاء التي ارتفع صداها إلى أبراجنا العاجية، فأفسدَت علينا هدوءنا وتفكيرنا؟ ... لعلك قائلٌ معي: هي «هستيريا السياسة» أُصيب بها هذا البلد دفعة واحدة! ... نعم، الأمر لا شكَّ خطير، ما دام قد استطاع أن يصل خبره إلينا، فيؤثر في أعصابنا وإنتاجنا نحن المعتصمين في أبراج الفكر الهادئ، وإذا وصل بخار «السياسة» إلى تلك القمم الباردة في أممٍ من الأمم فأنذِر إذَن بالويل، وتنبَّأ بأن رأس الأمة قد لعِب به الداء! ... فما رأس الأمة في حقيقة الأمر إلا مفكروها المجردون! ... وإنك لتذكر ما كان من أمر «جوته» شاعر الألمان يوم زُلزلت الدنيا بثورة يوليو الفرنسية! ... فقد دخل عليه صديقه الأديب «أكرامان» يزوره ويتحدث إليه، فبادره «جوته» صائحًا: «لقد أرسل البركان حِممَه، واشتعلت النار في كل شيء!»

فقال «أكرامان»: «نعم، إنه لحدثٌ جلل، هذه الثورة الفرنسية!»

فعجِب «جوته» وقال ساخرًا: «كلَّا، لستُ أعني تلك الثورة، إنما أتكلم عن تلك المساجلة العلمية التي نشبَت في موضوع «أصل الأنواع» بين العالمَين «كوفيه» و«جعفري سانت هيلير» تحت قبَّة «المجمع العلمي»!»

هنا أيها الصديق كل مجدِ «ألمانيا» في الماضي، بل كان مجد البشرية العليا! ... إن رعد الثورة، وصياح الثوار لم يبلغ صداهما أبراج العلم وقمم الفكر! ... هذا الرأس قد ظلَّ ثابتًا لم تلعب به «السياسة»، هادئًا لا يتأثَّر بانقلاب أو فتح أو حرب إلا ما وقع في ميدان العلم والفكر! ... ولقد انطفأ فعلًا لهبُ الثورة الفرنسية، ومضى بدخانه ورماد أشلائه، وبقيَ رأس «جوته» شامخًا مضيئًا في عليائه، رمزًا للفكر الإنساني الخالد!

ينبغي أن نتدبر قليلًا هذا البلاء خوفًا على رءوسنا أن يُصيبها دوار «السياسة» فلا تبصر شيئًا في هذا الضباب الشامل، وخشية على الناس أن يتمكَّن منهم الداء، فيذهب

بألبابهم، ويدفعهم إلى التقاتل والتناحر، ويغري الشباب منهم باقتراف الإثم وارتكاب الجريمة، ويشغَل المنتجين منهم عن الإنتاج، ويصرف الأمة قاطبة عن العمل المفيد، ويوقِف تلك النهضة التي كادت تعود إلى هجعة مضطربة، تحت أقدام كابوس!

إنا لا نستطيع أن نصيح في الناس، وإذا صحنا من هذا العلو فما صيحاتنا إلا همسات تمرُّ فوق بحرٍ من العراك والصياح والهتاف تعجُّ به وتصخَب أمة بأَسرها، هل لك في أن تنادي معي من بُرجك:

أيها الناس: اتركوا السياسة للساسة؛ فإنهم ليسوا في حاجةٍ إلى هدوئكم وانصرافكم إلى أعمالكم!

من مساجلات مع «منصور فهمي» ١٩٣٧م

جموح الديمقراطية

ما تقولُ هو الواقع! ... إن تفشِّي المادية وجموح الديمقراطية لِمن أظهرِ الأمراض الاجتماعية اليوم! ... ولعلَّ الأولى نتيجة الثانية، فقد فهمت الديمقراطية فهمًا غريبًا، فهي اليوم مطيَّة ذَلول لَمن يريد سرعة الوصول! ... لقد تزاحم الناس فعلًا على ركوبهم فجمحَت بهم وانطلقت تهدم الأخلاق وتُحطم المُثل العليا! ... إنك لن تجد اليوم كثيرًا من طراز أولئك الرجال الذين عاشوا متعففين ... لا مطمع لهم غير تلبية نداء الحق والواجب في صوت جهير وخُلوص ضمير!

لقد مضى ذلك الزمن الذي كان يجلس فيه العالِم قابعًا في أطماره، يُلقي الحكمة على سامعيه ويجري عليه الخير ليعيش ثم يموت ولم تعرف يده ثِقَل الجنيهات، فقد كفاها أن عرفت ثِقَل القُبلات، يضعها عليها رجال الحكم والسلطان. مضى ذلك الزمن الذي كنا نرى فيه الجاه والمال عاجزَين عن انتزاع الطبيب من واجبه الإنساني، والقاضي من عدله المنزه، ورجل الفقه من فتاواه المجردة، والأستاذ من بين تلاميذه ودرسه، ورجل الدين من بين تابعيه وزهده! ... الآن نستطيع بترقية أو بعلاوة لا تعدُو جنيهات أن نلعب بلُبِّ أكثر من هؤلاء، وأن نصرفهم عن ميادين نشاطهم الطبيعي، وأن نُغريهم بمناصبَ لا صلة لها بعملهم ولا بفضلهم، وهذا ما يحدث كل يوم، فقد ماتت المُثل العليا! ... وهذا ما أفقر دُور العلم والفكر، ودُور الدين والزهد، ودُور العدل والفقه، ودُور الفن والأدب من أربابها، وزجَّ بهم إلى التطاحن والتسابق في ميادين المادة والوصول!

هنا أيها الصديق كل الخطر؛ فإن تفشِّي المادية والوصولية في جسم الأمة لا يخيفني بقدر ما يخيفني دنو الداء من رأس الأمة، أي خاصتها وقادة الرأي فيها! ... إن هذا الرأس هو المحتاج الآن إلى العلاج، ولكن كيف؟ ... ما هي تلك العملية الجراحية التي تخرج من هذا الرأس صديد المادية، وتطهيره بماء القناعة والروحانية؟ ... كيف نستطيع أن نُذكِّر

الناس اليوم أن أقوى إمبراطورية على الأرض وقفت ذات يومٍ — وخلفها أساطيلُ البحر والجو — مكتوفة اليدين حائرة أمام رجلٍ هنديٍّ خلفه عنزة؟ ... ثِق أن في الإمكان صُنع الأعاجيب، لو استطعنا أن نُعيد إلى الخاصة حُسن ظنِّهم بـ «الأخلاق»، وصدق تقديرهم «للمُثل العليا»! ... ينبغي أن يؤمن الناس بألا أحد أعظم ولا أقوى من الرجل الذي لا يُشترى بمال ولا بجاه. نعم، إن مَن ملَك قلبًا حارًّا ولسانًا حرًّا، ولم يكن له في زينة الحياة مطمع، فهو وحده الذي يستطيع أن يسود العالم! ... ألا ترى معي أن «المُثل العليا» المحطمة في حاجة إلى أن توضع من جديدٍ شامخة فوق عروشها الرخامية الجميلة!

من مساجلات مع «منصور فهمي» عام ١٩٣٧م

الإيمان بالمُثل العليا

تسألني عن أقرب الأسباب لإعادة حُسن الظن بالأخلاق، وتقوية الإيمان بالمُثل العليا ... هنا كل المسألة ... ولستُ أدري مَن يبدأ بالعمل ومَن يعطيني المثل ... أهُم الأفراد، أم هُم أصحاب السلطان؟ ولقد ذكرتُ «عمر بن الخطاب» وزهده في مُتع الدنيا، وفي يده مفاتيح الكنوز وتحت قدميه دولٌ وعروش! ... هذا حقيقة خير مَثلٍ لصاحب السلطان، ينبغي أن يُضرب للأفراد والمحكومين كي يقتدوا به ويؤمنوا بأن العظمة الحقيقية لا تعرف الحرص على المادة، ولكن الدرس والمثل قد يأتي أيضًا من الفرد المحكوم!

وما إخالك تنسى موقف ذلك العالِم الفاضل «الشيخ الطويل» يوم دعاه «الخديو»؛ فأبى إلا أن يذهب إليه بعباءته البالية الممزقة التي عليه، فلما ألحَّ عليه الناصحون أن يرتدي عباءة جديدة صاح فيهم؛ أهو يريد رؤيتي أنا، أم رؤية العباءة؟ إن أراد العباءة فها هي ذي احملوها إليه، وإن أرادني أنا. فإني أذهب إليه كما أنا. وما إخالك تنسى كذلك موقف علماء الأزهر يوم دعاهم «نابليون» الظافر وأراد أن يُزين صدورهم بالنياشين، فراعه أن رأى أيديهم الغاضبة قد انتزعت نياشينه، وألقت بها إلى الأرض في حضرته، فلم يغضب وابتسم، وعَلِم أنه أمام رجالٍ يحترمون أنفسهم! ... وهو أول مَن يدرك أن الانتصارات والجيوش لا قوة لها ولا حيلة أمام رجلٍ يحترم نفسَه! ... فأنت ترى معي أن الدرس الخُلقي قد يأتي من صاحب السلطان، كما يأتي من الفرد المحكوم! ... المهم في الأمر أن يوجد المثل الحي للأخلاق الحرة النزيهة العظيمة، في أي طبقةٍ وأي بيئة، وأي زمان!

وأعود فأجيبك على سؤالك الآن، في غير ترددٍ:

إن أقرب السُّبل إلى إعادة حُسن الظن بالأخلاق والمُثل العليا هو وجود المَثل بالفعل! ... هو ظهور رجل واحد ومَثل واحد حيٍّ نراه بأعيننا، ونسمع صوته بآذاننا، ونلمسه

بأيدينا، ونتبعه بأفئدتنا! ولكن هل كلُّ مجتمعٍ قديرٌ على إخراج مثل هؤلاء الرجال، أو أن أولئك لا يظهرون إلا في مجتمعٍ يهيئهم للظهور؟

من مساجلات مع «منصور فهمي» عام ١٩٣٧م.

داء الكلام

هنالك أمرٌ آخر يدعو إلى قلقي على مستقبل نهضتنا ... إن أول شيءٍ يحزنني حقيقة — وأرجو أن يكون قد استرعى نظرك على الأقل — هو أن «الكلام» له عندنا دائمًا كل القيمة، أما «العمل» فلا يسأل أحدٌ عنه! ... إن «الشكل» هو الذي يعنينا ويخلب منا اللُّب ... أما «الجوهر» فلا نكاد نلتفت إليه! ... إن «الوسيلة» تنقلب عندنا دائمًا إلى «غاية» ... لعلك قرأت في كتابي «يوميات نائبٍ في الأرياف» كيف يهتم رجال الضبط أحيانًا بتنميق تحرير المحاضر، وملء القسائم أكثر من اهتمامهم بالقبض الفعلي على الجُناة ... ولعلك رأيت في محيط حياتنا العام كيف أن عشرين عامًا قد مضت على مصر، ونحن لا عمل لنا إلا الصياح بملء أفواهنا هاتفين بكلمات الحرية والاستقلال! ... ولقد نبذنا كل شيء، وتركنا كل عملٍ من أعمال النهضة الحقيقية، جلسنا نتقاذف أقوالًا ونُردد كلمات ... إلى أن شاء القدر آخر الأمر أن ينقذنا من هذا التكاسل والقعود، فقال:

«هاكُم الاستقلال!»

فقلنا:

«هات!» ثم أخذنا هذه الكلمة، وجلسنا كما كنا، لا ندري ماذا نصنع بها ... نحن نقع دائمًا في الحيرة كلما تركتنا الظروف وجهًا لوجهٍ أمام العمل المنتج، وكأننا لا نجد فرجًا ولا مخرجًا إلا في الصياح والجدل! إني لأخشى أن تظهر في الأفق كلماتٌ أخرى، أو أن نخترع موضوعًا جديدًا للتصايح، يشغلنا من جديد عن المُضي الجدي في حركة النهوض المنشود!

آه ... العلة كلُّها ها هنا ... إن روح العمل وعبقرية الخلق ثمار لم تلقِ بعد بذورها في أرض مصر! ... حاجتنا شديدةٌ إلى هذا الصنف من رجال العمل، الذين لا يصرفون عن الخلق والبناء شيئًا في الوجود! ... إنك ولا ريب تذكر «نابليون» في غزوته لروسيا، وكيف

خذله البرد والجليد، غير أني أريد منك أن تذكر ماذا فعل هذا الرجل عندما وجد نفسه محصورًا في تلك الأصقاع، لا يدري ماذا يفعل؟ ... أستغفر الله! ... إن الرجل العظيم يعرف دائمًا ماذا يصنع، ولا يطيق مطلقًا أن يقعد دون أن يخلق شيئًا؛ فهو لم يُنفق وقته في صياح، ولم ينتظر الغد مستلقيًا على ظهره، ولكنه شمَّر في الحال عن ساعديه للعمل، وجعل وهو في كربه وضيقه يفكِّر في إصلاح بلاده، ويضع بالفعل وهو بعيدٌ عنها، الأسس اللازمة لتنظيم الحركة الفكرية والاجتماعية فيها، وكان من بين تلك المنشآت مشروع «الكوميدي فرانسيز»، إحدى منائر الثقافة الفرنسية في العالم، وكذلك فعل هذا الرجل في «مصر»، يوم حطم خصومُه أسطولَه وانقطعت صلته بوطنه، فلم يضعف عزمه، ولم يفتر روح العمل فيه وقال: لِمَ لا أصنع في «مصر» حضارة أخرى؟

وشرع من فوره يبني دعائم المعاهد العلمية، ويضع أحجار النظام والاستقرار لطرائق الحكم وأسباب العمران! ... ولكن، مَن المسئول عن موت روح العمل المنتج في هذه الأمة ... أهم رءوسها الذين عودوها سياسة الكلام ... أم هي الأمة نفسُها التي لا تحبُّ ولا تحتمل بعدُ غير هذا الصنف من الطعام؟!

من مساجلات مع «منصور فهمي» عام ١٩٣٧م

البرنامج أولًا

ما دُمنا قد اتفقنا على أن «العمل» قد حان له أن يحلَّ محل «الكلام»، وما دُمت يا صديقي قد طلبت إليَّ أن أمضي في ذكر التفصيلات؛ فإني أقول لك إن أول ما ينبغي عمله هو وضع «البرنامج»، وقد ترُد عليَّ بأن «البرامج» هو أيضًا مما يدخل في منطقة «الكلام»، ولكن ما الحيلة إذا كانت حتى هذه الخطوة الأولى في سبيل العمل لم نخطها بعد؟ … إن كل النهضات التي قامت بها الحكومات الحديثة في بلادها — خصوصًا بعد الحرب — قد تمَّت وَفق منهجٍ مرسوم، وتحدد لتنفيذها زمن معلوم فقالوا:

هذا «نظام خُمسي» وهذا «نظام عُشري» تبعًا لعدد السنوات التي قرر الأخصائيون أنها لازمة لظهور المشروعات، فأين نحن من هذا؟ … أتستطيع مثلًا أن تقول لي: هل وُضع نظام ثابت لمحو الأمية من البلاد في ظرف سنوات معلومة كما فعلَت العراق، حتى نُرتب على هذا الحدث نتائج اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية نواجه بها هذه النهضة القادمة؟ … أيمكنك أن تقول لي: هل هنالك مشروعات اقتصادية، درسها الخبراء وقرروا لها زمنًا تتم فيه، وتخرج للبلاد في نهايته، وسيلة جديدة من وسائل الإنتاج تزيد الثروة الأهلية الزيادة التي تتعادل مع نمو عدد السكان، وتسد الحاجات المنتظرة والمطالب المستقبلية … أو أننا سنظل دائمًا كما نحن، وكما كنا منذ أن أدخل الخديو «إسماعيل» في مصر زراعتي القطن والسُّكر، لا نفكر في مصدر جديد للثروة ينفعنا في الغد؟

وهل في مقدورك أن تقول لي: هل درَس الباحثون سياسة ثابتة للتعليم الجامعي، وخطة واضحة لتوجيه الثقافة العامة في نهضتنا؟ … وإلى أي مدى ننحو نحو الحضارات القائمة … أو أننا سنبقى حيارى في حدائق المعرفة، لا ندري ماذا نأخذ وماذا ندع؟ … فأنت ترى أنه لم يوضع شيء بعد — حتى على الورق — لتحديد العمل والزمن مما يقتضيه التنفيذ لمختلف فروع نهضتنا، بل إنه لم يُنظر إلى الآن حتى فيما يجب البدء به

حالًا من هذه المرافق المختلفة، تبعًا لحاجة البلاد، حتى لا يضيع علينا الوقت، فهل أنت ما زلت من المتفائلين؟!

من مساجلات مع «منصور فهمي» عام ١٩٣٧م

فساد الدولاب

حتى على فرض فراغنا من رسْم الخطط ووضع البرامج، فالباقي بعد ذلك كثير، بل إن مجرد السير الآن في طريق العمل عسير، إذ بمَن نعمل؟ ... إن الأيدي العاملة قد لحقها الفساد، فهي مثل «تروس» الساعة المختلة، تدور في غير حدود. فيَدُ الوزير أحيانًا تمتد إلى الأنظمة والأوضاع تقلبها رأسها على عقب، دون أن تُصغي إلى كلام أصحاب الاختصاص من المرءوسين، وإن الموظف مهما يكبر، ومهما ينبغ، لا يعدو أن يكون تابعًا يتلقى أمرَ رئيسه، ويؤمِّن على رغباته، وإن عَلِم أن فيها الضرر لمصلحة البلاد! ... وهكذا أُهدرت الشجاعة الأدبية، وجبُنت النفوس عن تحمل المسئولية، بل إنه ليحدث أكثر من ذلك؛ فإن المسألة الفنية لتُعرض أحيانًا على لجان الأخصَّائيين، يبحثونها في شهور، فيأتي وزيرٌ يضرب بنتيجة البحث الطويل عرض الحائط، ويؤشر بقلمه الأحمر مناقضًا ما جاءت به اللجنة، كأنما هو يتحدى تلك العقول، ليُظهر أن رأيه «المرتجل» لساعته خيرٌ وأحكم من آراء المختصين بعد درس شهور، ولكن الأدهَى والأمرُّ أن يجد في أكثر الأحيان من بين موظفي وزارته ومن هؤلاء الأخصَّائيين أنفسهم مَن يقول له: «آمين، آمين!» فهل بمثل هذا الدولاب الحكومي نستطيع أن نسير في تنفيذ خطةٍ أو برنامج؟ ... فإلى أن يعلم الوزير كيف يحترم رأي موظفيه المختصين، وإلى أن يفهم هؤلاء الموظفون كيف يحترمون آراءهم، وإلى أن توزع الأعباء والمسئوليات بين الوزير ومعاونيه، ويحل النظام محل الفوضى في علاقة الرئيس بالمرءوس، فلن تكون الأداة الحكومية صالحة بعدُ للسير الجدي في تنفيذ مشروعٍ من المشروعات!

وإني أسوق إليك مثلًا صغيرًا للإدارة الحكومية الصالحة، ما ذكره يومًا صحفي أمريكي قال: إنه ذهب لمقابلة وزير خارجية «إنجلترا» قبل إعلان الحرب العظمى ليسأله عن موقف «إنجلترا» من ذلك الحدث الهائل الذي يهدد العالم. فوجد الوزير مطرقًا في

مكتبه، وإلى جانبه وكيل وزارته الدائم، غارقًا بين تقاريرَ فنية ووثائقَ تاريخية، فرفع الوزير رأسه وقال للصحفي: «تسألني عما إذا كنا سندخل الحرب! ... لست أنا الذي يستطيع أن يجيب الآن عن هذا السؤال الخطير!» ... ثم أشار إلى وكيل وزارته وقال: «إن وكيل الوزارة يبحث الموضوع من كل وجوهه، وهو وحده الآن صاحب الكلمة، وعليه تقع التبعة، ونتيجة أبحاثه هي وحدها التي ستُنير لنا الطريق كسياسيين، فنقرِّر إذا كان من واجب «بريطانيا العظمى» دخول الحرب!»

من مساجلات مع «منصور فهمي» عام ١٩٣٧م

الحرب بكلِّ الأسلحة

كارثة أخرى من الكوارث التي نُكبت بها مصر، وهذا الغلو والإغراق في الخصومات؛ فإذا اختلفنا على رأيٍ فنحن أفيالٌ هائجةٌ تدوس كل شيءٍ وتحطم كل شيء، إن في كلِّ بلدٍ راقٍ حدودًا مقدسة تقف عندها الخصومة وأسلحة لا يلجأ إليها أبناء الوطن الواحد، فإقحام الدين مثلًا في ميادين الخلاف السياسي أمرٌ لا يمكن أن يحدث اليوم في أي شعب ديمقراطي متحضر!

فالديمقراطية ليست كلمة تقال في الخُطب؛ لأنها جميلةٌ ذات رنين، ولا هي بناءٌ شامخٌ يسمونه «البرلمان»؛ ولكن الديمقراطية هي روح المساواة والإخاء وحرية الفكر المكفولة للجميع! … وإن كل طعنةٍ تصيب كتلة الوطن فتحللها إلى عناصر أو طوائف إنما هي طعنة مسمومة تصل مباشرة إلى قلب الأمة وصميم الديمقراطية، كذلك ينبغي أن نتذكَّر دائمًا أن الخصم في المبدأ هو مواطن مصري قبل كل شيء، وأن خصومة المبادئ ليس معناها القضاء المبرَم على الأشخاص بكل الأسلحة، وتعطيل كل أدوات المنفعة التي تُرجى منهم في وقتٍ من الأوقات، فليس من حقِّ مُواطن أن يقضي على مُواطن آخر قضاءً يُخرجه إلى الأبد من ميدان النفع العام، وإنما الغرض الذي يسعى إليه الجميع هو خدمة الوطن وحده! … فلتكن الخصومة في حدود التنافس على القيام بخدمة المجموع، وليعتقد كلٌّ في خصمه أن عجزه يومًا بعد خدمة بلاده على الوجه المطلوب لا يمنع من استطاعته ذلك في يوم، فلتكن إذَن السهام المصوَّبة من طرف إلى طرف في غير مقتل من الشخصية والآدمية والشرف، فليس من مصلحة الوطن أن تُفرش أرضه بصرعى وقتلى من أبنائه العاملين، إنما المصلحة هي في أن تتداول السواعد إدارة العجلة، وأن تتهيأ لكلِّ يدٍ الفرصة لخدمة البلاد!

من مساجلات مع «منصور فهمي» عام ١٩٣٨م.

نعيم الانتخابات

معذرة يا صديقي إذ أقطع اليوم سلسلة مناقشاتنا الإصلاحية؛ لأتحدث في خاطرة مرَّت بي، ولعلَّها مرَّت بك، فالأفكار الآن لا يشغَلها غير أمر واحد: الانتخابات ... يُخيَّل إليَّ أن موسم الانتخابات نعيمٌ لكل الناس إلا للمتقدِّم إلى الانتخابات: ويلٌ لهذا المتقدِّم! ... إن كل خطوة يخطوها إلى الميدان نفقةٌ وغرامة، فهو لا يحرك رجليه قبل أن يدفع مائة وخمسين جنيهًا «رسوم الامتحان» ثم يسير فاتحًا جيوبه بالمال، وعيونه بالحرص والحذر، وفمه بالكلام والخطب والوعود.

أما نحن — معشرَ النظارة والمتفرجين المحايدين — فهو لنا تسلية أمتع من سباق «الدربي»! ... وإني لأرى الناس حولي مبتسمين يتحدثون في أخبار هذه «الملهاة» بلذةٍ واهتمام، وأرى فئة العارفين والحذاق يستعرضون المرشحين، ويوازنون بينهم كما يوازن أهل الخبرة بين كِرام الجياد، وهي تتبختر في المضمار فوق العشب الأخضر قبل بدء السباق! ... على أن النعيم الحقيقي فيما أرى هو من نصيب الفلاح المسكين ... هذا المخلوق العاري القدمين الذي يَجوع أكثر الأسبوع، ولا يرى وجه القرش إلا مصادفة كما نرى نحن وجه الحظِّ عابرًا في طريق الحياة. هذا الذي يسمونه إنسانًا بحكم النوع وهو في الحقيقة لا يسترعي التفَات إنسان! ... هذا الآدمي المهمَل الذليل لا يُراد اعتباره ولا تعود إليه آدميته إلا في أيام الانتخابات؛ فإن «صوته» الضائع مع الريح كأنه صوتُ كلبٍ ضال، وهو اليوم (صوت) له خَطرُه وله سِعرُه، وله طلابه، وله مَن يجري خلفه، ويقدِّره، ويدفع فيه نقودًا، وهذه المَعدة الخاوية التي لم يدخلها غير الفجل والجبن ذي الدُّود تنتظرها اليوم ولائم، وتُذبح من أجلها ذوات الأجنحة والقرون!

وتلك الأقدام الحافية التي لم تعرف غير المشي خلف حمير «السِّباخ» توضع اليوم تحت تصرفها السيارات و«التاكسيات»، تنقلها من حفلة إلى حفلة ... نعم ... إنها فترة لا

تُحسب من عمر الفلاح، وهو بذكائه يعرف أنها لا تدوم، فهو يستمتع بها من غير غرور، ويراها تزول فما يأسف ولا يزيد على أن يقول:

كانت أيام «استنخاب» ركبنا فيها «كنابيل»، وأكلنا «زفَر» ودخلَت جيوبنا «نقدية»!

مَن يدري لعل فريضة «الزكاة» التي ذهبت مع زمن قديم عادت اليوم في ثوب جديد! ... نعم، إن لم يكن من فضيلة الانتخابات إلا أن تشتري صوت الفقير بالذهب وتسد فمه بالطعام، وتُركبه ما لم يركب، وتُريه ما لم يرَ، وتحيطه بمظاهر العناية والاحترام ولو إلى وقتٍ قصير، لكفى بها فضيلة.

إن الانتخابات في نظري ليست — حتى الساعة في هذا البلد — مظهرًا من مظاهر الديمقراطية، ولكنها أول مُعلم يُفهِم الفلاح أولًا معنى الحياة الإنسانية ويُذيقه طعمَ الآدمية!

من مساجلات مع «منصور فهمي» عام ١٩٣٨م

شركة مقاولات الانتخابات

نعم يا صديقي! ... لقد خطر لي أن في الإمكان إنشاء مثل هذه الشركة تسهيلًا للعمل، فإن من المرشحين مَن قد يكون مثلي ومثلك في براءة الحَمل الوديع، لا يعرف كيف ينال من خصومه، ولا كيف يمدح نفسه، ولا كيف يضحك على ذقون الناخبين! ... فما أحسن لِمثلنا من أن يتوجه إلى مثل هذه الشركة، ويتفق معها على «المقاولة» ويدفع «العربون»، ويذهب إلى منزله فينام ملء عينيه، وتقوم هي بكلِّ ما يجب من إقامة السرادق، وتأجير الخطباء، وإعداد الولائم، وجمع المعلومات عن فضائح الخصم ومثالبه الشخصية ... إلخ ... إلخ.

وما على مثلي ومثلك بعد ذلك إلا أن يذهب إذا شاء خفية على سبيل حبِّ الاستطلاع، ويجلس في سرادق الاحتفال الذي تقيمه الشركة؛ فيرى ويسمع اللذيذ الطرين، يرى خطباء الشركة قد قاموا، أو اعتلوا المنصة واحدًا تلو واحد، يُوسعونه مدحًا، ويسردون تاريخ حياته الحافل بكل جليلٍ ومجيد، ويتكلمون في ذمته وطُهره وكفايته ونزاهته، وهو لم يرهم ولم يروه قط! ... ثم يعرجون على خصمه فيطعنون فيه الطعن المرَّ، ويذكرون من خصاله الذميمة وأعماله الخبيثة وخياناته وسفالاته ما تشمئز منه النفوس، وما تكاد تختم هذه الحفلات على خير أو شرٍّ حتى تقدِّم الشركة «فاتورة» الحساب؛ فإذا استكثرت المبلغ أقسموا لك إن الشركة قامت بنفقات باهظة، وإن خصمك وحده كلف الشركة «شتائم» بما يساوي مائة جنيه ... إلى هنا لا بأس ... لكن لو خطر لك أن تسير قليلًا في البلدة لوجدت عجبًا؛ فإن سرادقًا آخر قد نصبته عينُ الشركة لخصمك هو هو أيضًا، وقد قام فيه خطباء آخرون من الشركة يمدحون الخصم، ويغسلون عنه ما لحقه في السرادق الأول، وينزلون بك أنت كل تهمةٍ وكل عيب، ويلصقون بك من «الشتائم» ما

يساوي مائتي جنيه؛ فإذا ذهبت غاضبًا إلى الشركة قالوا لك: يا حبيبي حضرتك «زبون» وحضرته «زبون»!

فإذا صِحت محتجًّا ابتسموا لك في أدبٍ بما معناه أن «لا فضل لزبون على زبون إلا بالمال!»

هذه الشركة الخيالية غير موجودة من حُسن الحظ على هذا الوضع، ولكن مَن يدري؟ لعل الحال في جوهره يجري أحيانًا على هذا المنوال، فإن ما يُسمونه حفلات الانتخابات يؤدي غالبًا إلى مثل ذلك بدون أن نقصد، وإن يد «التنظيم» هذه إذا دخلت في مسائل الواجب والضمير فإنها تتجه غالبًا إلى فم الساذجين، فتُزحمه بألوانٍ من الطعام، يضيع معها صوتُ الواجب والضمير!

العرائس

تُرى ونحن على هذه الحال من البراءة والسذاجة، لو حدَّثتنا النفس الملعونة بالنزول من أبراج فِكرنا العاجية، والجلوس تحت قبَّة البرلمان الذهبية، فماذا كنا نخطب قائلين للناخبين؟

أمَّا أنا فإني كنت أقول هكذا:

سادتي الناخبين!

باسم «الديمقراطية» أتقدَّم إليكم ملتمسًا عطفكم! ... إني أحبُّ الديمقراطية، ومَن ذا الذي لا يحب الديمقراطية؟ ... تسألونني ما معنى هذه الكلمة التي تسمعونها هذه الأيام كثيرًا؟ ... تعريفها بسيط: «إن الديمقراطية» هي أن رهطًا من الجياع الحُفاة يَمنحون مرتبًا شهريًا قدره أربعون جنيهًا لرهطٍ آخر من الثراة والعتاة!

لعل هذا المنطق يدهشكم، ولكن تلك هي الحقيقة! ... هنالك أعجب من ذلك؛ فإن جوف الحقيقة مملوء دائمًا بالغرائب لَمن أراد الغوص فيها! ... إن بيننا — معشرَ المرشحين — وبينكم — معشر الناخبين — سوء تفاهم كبيرًا؛ فإننا نطلب إليكم أن تخدمونا، وأنتم تحسبون أننا وُجدنا كي نخدمكم، أنتم تظنون «البرلمان» هو المكان الذي نتكلم فيه عنكم طول الوقت، وعن جوعكم وفقركم وجهلكم، ونبحث تحت قبَّته كل يوم عن وسائل رخائكم ورُقيكم، ونحن نرى في تلك القبَّة الذهبية شرفًا، لَمن استطاع أن يقتنص له تحتها مقعدًا، ونرى عضوية المجلس لقبًا نُتوِّج به أسماءنا، ونُزين به «بطاقاتنا»!

إن عضوية البرلمان في نظرنا ليست إلا عربة «الرولزرويس» التي نرفع بها مركزنا الاجتماعي في أعين الشعب، ونحن إذ ننفق المال في هذه السبيل إنما ننفقه ونحن معتقدون أننا نشتري به وظيفة أو لقبًا أو مقامًا؛ فإذا ما ظفرنا بما نريد بفضل أصواتكم ووجدنا أيديكم العارية السمراء تحملنا إلى داخل ذلك المكان؛ فإننا نتربَّع فيه كالعرائس في

«الفترينات»، ومهما صِحتُم وناديتم وصرختم بعد ذلك؛ فإننا لن نسمع أصواتَكم، لأن بيننا وبينكم حاجزًا من زجاج، ولن تستطيعوا أن تلمسونا أو تقربونا، ولكنكم تستطيعون أن تشيروا بأصبعكم من خلف البِلور، فنحسب ذلك منكم إعجابًا فنزداد صلفًا وتِيهًا!

أيها الناخبون! ... عجبًا، إني حقًّا لعلى غاية السذاجة إذ أُفضي إليكم بكل هذا في خطبتي التي على أساسها أُنتخَب ... ما العمل الآن؟

أتنتخبونني برغم ذلك؟ ... لعلَّ صراحتي على الأقل تشفع!

من مساجلات مع «منصور فهمي» عام ١٩٣٨م

الشَّحَّاذون

إن تعاقُب الوزارات السريع في مصر، يقذف اليوم على أفاريز الفراغ بعدد وافر من أصحاب «المعالي» لا يصنعون شيئًا غير الانتظار في «ميادين» السياسة ممدودي الأكُفِّ. ماذا ينتظر هؤلاء المتعطلون؟ ينتظرون دورهم في العود إلى الركوب؟

نعم ... إن «الحكم» أصبح الآن مثل أرجوحة «الخيول الخشبية الدائرة» التي يركبها الأطفال في مقابل مليمات، ولو أُعطيَ طفل ألف مليمٍ لأنفقها كلها في هذه اللعبة اللذيذة، فهو يحب الركوب لمجرد الركوب فوق هذا الحصان الخشبي المطليِّ بالذهب، الملوَّن بأزهى الألوان الخادعة، وإن دوره ينتهي ورأسه يميل من الدوران، فلا يُفيق إلا وقد أنزله صاحب الأرجوحة على الأرض، فيظل واقفًا بلا حراكٍ ينظر إلى حصانه يدور بغيره، وفي قلبه الصغير حسرة، وفي عينيه الزائغتين علامات الصبر النافد، إلى أن تنتهي الدورة فيخفق قلبُه أملًا في أن يعود إلى الركوب، وهكذا دواليك!

أما الفائدة من ذلك فلا شيء غير اللهو والسرور، فهو متى امتطى صهوة الحصان الخشبي تملَّكه الغرور، وظن أن هذا غاية الأمل، وأنه قد وصل ... ويلعب برأسه دوار «الأرجوحة»، أو دوار السلطة الباطلة و«الفروسية» الكاذبة، فيَقنع بذلك، ولا يفعل شيئًا غير ازدراء الواقفين في الانتظار، وهو يمُرُّ مرَّ من البرق متعاليًا متصايحًا صياح اللذة والظفر!

فالحياة في مصر لهو في لهو، وتعطُّل إلى جانب تعطُّل، وفراغ إلى جانب فراغ ... الجميع من شبان وسياسيين وقادة ومَقودِين، لا عمل لهم غير التطلع إلى خيول «المناصب الحكومية» الخشبية، وهي تدور! وهذا الروح العام قد أثر في روح الشعب كلِّه، فنحن لا نكاد نرى طرقاتنا في مصر خالية من أناس أشداء يتطلعون إلى موائد المقاهي، ويمدُّون أيديهم يطلبون شيئًا، لقد سرَت روح البطالة والسؤال في كل طبقات الشعب؛ الجاهل

منها والمتعلم! وكدنا نعتقد أن مصر قد نسيت أن في الوجود شيئًا يُسمى العمل والكدح والاعتماد على النفس، وأن مصر قد أصبحت بلدًا تخفق عليه راية «التسوُّل» العام، وهنا الخطر الداهم، ولا أبالغ إذا قلت إن روح «الشحاذة» موجودةٌ في كل نفسٍ مصريةٍ في الوقت الحاضر، فالوزير الذي تسوَّل طويلًا في انتظار منصبه، لا يكاد يدخل مكتبه كل صباح، حتى يرى هو الآخر أفواج المنتظرين من أصحاب السؤال يمدُّون أيديهم ليعطيهم مما أعطاه الله، فيُثقلون كاهله بطلبات النقل أو التعيين أو الترقية أو العلاوة أو إلغاء عقوبة أو التماس منحة، ويضيع الجزء الأكبر من عمل الوزير اليومي في التخلص من هؤلاء السائلين.

وتمكَّنَت هذه العادة المرذولة إلى حدٍّ نرى معه بعض الناس ينتظرون حتى يَسألوا جيرانهم الجرائد ليقرءوها «شحاذة»، وإلى حدٍّ أرى معه أنا المؤلف كل يوم مَن يسألني نسخة من كتبي «شحاذة»، ولا أستطيع أن أجلس في مكان حتى أسمع من حولي أصوات الإلحاح في سؤال شيء من الأشياء!

حقيقة إن الحياة في مصر أصبحت لا تُطاق؛ فإما أن يتغير هذا الروح العام، وإما أن نيئسَ ونحكم على هذا الشعب أقسى الأحكام!

على أني أعود فأقول دائمًا إن الذنب في كل هذا واقعٌ على كاهل القادة وحدهم من رجال الحكم السياسة؛ فهم الذين علموا الشعب كلَّه، وغرسوا فيه روح البطالة والتسوُّل والصياح، ولو أن الشعب رأى رؤساءه ورجالاته يعملون في سكون، لخجِل وعمِل هو أيضًا بغير صخب، ولأصبحنا حقيقة شعبًا متحضِّرًا يعمل ولا يتسوَّل!

أريد أن أضع تحت أنظار وزرائنا مثل أبي بكر، يوم ولي الخلافة، فقد واصل عمله في بناء الدولة الفتية حتى رضِي واطمأن، فجهز إبِله ذات صباح، وأراد أن يخرج في تجارةٍ له، فاعترضه الناس دَهشِين: كيف تخرج في تجارتك وأنت الخليفة؟

– وكيف أعيش وتلك صناعتي!

نعم … هذا الرجل العظيم لم يكن يعتقد قط حتى ذلك الوقت، أن سياسة الدولة عمل يُرتزق منه، إنما هو في نظره واجب محتوم عليه كعضوٍ من أعضاء الأمة. أما الارتزاق وأسباب العيش فينبغي أن يكفُلها عمل آخر وكدح آخر!

الأحزاب والشعب

سألَتني إحدى المجلات السياسية عن رأيي في أحزابنا المصرية، ومدى قيامها بواجبها نحو تحسين حال الشعب، فقلتُ:

إن المفروض في مُمثلي الشعب، أن يتقدموا إلى المقاعد النيابية ببرامجَ ثابتةٍ واضحةٍ محددٍ فيها بالدقة؛ الخطط، ووسائل التنفيذ لمطالب طبقات الشعب المختلفة التي يمثلونها ... ولكن الذي يحدث اليوم هو غير ذلك، فإن كل مشروع حيوي يهم الشعب، إنما يصدر عن جهاتٍ أخرى غير ممثلي الشعب! ... ولم نعُد ندري، فيمَ يمثل هؤلاء الممثلون الأمة!

خُذ مثلًا، مشروع مقاومة الحفاء، ما كان أحراه أن يكون جزءًا من برنامج حزبٍ من الأحزاب! ... إن كلمة أحزابٍ — كما تُفهم في مصر — تُطلق في الحقيقة على سبيل التجوُّز؛ إذ إنه ليس في مصر حزب بالمعنى الحقيقي لكلمة حزبٍ كما تُفهم وتستعمل في النظم الديمقراطية الصحيحة! ... إنما في مصر «فِرَق» منفصلةٌ تسمى أحزابًا، لا هَم لكلِّ فرقةٍ من هذه «الفِرَق» إلا «توزيع» المقاعد البرلمانية، والحصول على المناصب الوزارية وتنظيم حركة «تذاكر» الانتخاب، أما برنامج «الرواية» فليس من همِّ أحد التفكير فيه! ... فالأمر في ذلك يسير على نمط حفلات التمثيل «ومتعهديها» الذين يركِّزون كل نشاطهم، في مسألة توزيع المقاعد وتحصيل قيم التذاكر! أما مسألة «البروجرام» والغرض من الحفلة وما إلى ذلك فلا يلتفتون إليه، ولا يجعلونه من شأنهم! ... وإني لأحب هنا أن أقول: إنه قد آن الأوان لأن يسأل الشعبُ عن البرامج لا عن شغل المقاعد!

إن الشعب اليوم قد تغيَّر في نظري، وإن عقليته قد تكوَّنت، وأصبحت له رغباتٌ حيويةٌ تمسُّ صميم غذائه اليومي وحياته المادية! ... إنه يطالب اليوم أن يعيش، لا معنويًّا

فقط، كما كنا نُنادي بالأمس، ولكن ماديًّا أيضًا، عن طريق اللُّقمة المتوفرة للملايين من المحرومين!

– ألم تتجه العناية في هذه الأيام إلى طبقات الشعب الفقيرة؟

– هذا صحيح، ولقد كثُر جمع الصدقات، ونشطت حركة التبرعات ... ومهما تكن الدوافع إلى ذلك، فهي على كل حال، عواطف كريمة، تنمُّ عن تيقظ روح الأريحية في نفوس ذوي الفضل من الأغنياء والقادرين ... على أنه ينبغي لنا، مع ذلك، أن نتساءل: إلى متى نظل في مصر — ونحن نملك فيها نظامًا ديمقراطيًّا — نعتقد أن إصلاح شئون الطبقة الفقيرة معناه التصدق والإحسان؟! ... وإلى متى، ونحن لدينا برلمان، لا نجد فيه ممثلين للملايين الطبقات الفقيرة، يدافعون عما تراه هذه الطبقات مُنهِضًا لها، مُصلحًا لحالها؟! ... ما معنى الديمقراطية إذا لم تكن هي تمكين طبقات الشعب كلها — على اختلاف مراتبها ومطالبها — من الدفاع عن نفسها بنفسها تحت قِباب المجالس النيابية؟!

ما من برلمان في أي بلدٍ ديمقراطيٍّ في العالم، يعرف هذا الوضع الذي نحن عليه؛ لأنه ما من أحزاب في العالم تكوَّنت هذا التكوين الشخصي المرتجَل كأحزابنا المصرية، ذات الصبغة الشخصية الواحدة المتشابهة!

في البلاد الأخرى أحزابٌ ذات مبادئ مقررة، كلٌّ منها يدافع عن حقوق طبقةٍ من طبقات الأمة، من ضمن تمثيل الطبقات المختلفة على نحوٍ يكفل التوازن بين المصالح. بينما أحزابنا، على تعددها وكثرتها، لا تمثل في حقيقة الأمر، غير طبقة واحدة، هي طبقة المُلاك!

هي التي نسمع صوتها في البرلمان! ... وهي التي اتخذت لنفسها صفة القوامة على الطبقات الأخرى، وهي التي تستطيع أن تَمنع وتَحرِم الطبقات الأخرى، حتى من حق الاعتراف بنقاباتها التي تُنظم شئونها، وتُدافع عن حقوقها!

ويحضرني هنا مَثلٌ أحبُّ أن أذكره، فقد وجدت في حانوت حلاقة ذات مرة حلاقَين؛ أحدهما يعمل إلى جانب الآخر، ويتقاضيان أجرَين متساويَين، الأول مصري، والثاني يوناني، فعلِمت شيئًا عجيبًا، فقد قال لي العامل المصري إنه، وهو في بلاده، لا يستطيع أن يُعلِّم أبناءه بالمجان، ولا أن يستشفيَ بالمجان، وإنه لا يجد أحدًا ولا هيئة تُعِينه على تكاليف العيش ... بينما زميله اليوناني يُعلم أولاده كلهم بالمجان، في المدارس اليونانية، ويَستشفيَ هو وعائلته بالمجان في المستشفيات اليونانية، لأن هناك هيئات ونقابات يونانية تُعنَى أتم العناية، بمساعدة العمال والأُجراء اليونانيين! ... وقد روى لي هذا العامل المصري

أيضًا، أنه ذهب بابنته الصغيرة يومًا إلى مدرستنا الأولية، فوجد عاملًا مصريًّا آخر قد عجَز عن دفع مصروفات ابنته على ضآلتها «عشرة قروش شهريًّا» فاضطر إلى العودة بها إلى البيت، مما حزَّ في نفس زميله فأخرج «أجره اليومي» من جيبه ودفعه من أجله.

لا شكَّ أن أكثر الناس يوافقونني على أن هذا الوضع للأشياء يجبُ أن يتغيَّر!

الفكر والشعب

سألَتني كذلك مجلة سياسية أخرى:

هل ترون أن الكتَّاب الاجتماعيين في القرن الماضي كانوا هم قادة الإصلاح في أوروبا وأمريكا؟

– بالتأكيد، بل لا يزال الكتَّاب حتى اليوم هم الذين يُمهِّدون السبيل للإصلاحات والانقلابات الاجتماعية المقبلة، وإني أرى أن كتابات روائي مثل «شارلس ديكنز» كان لها الفضل في حمل ساسة إنجلترا من محافظين وأحرار وعُمال على وضع المسألة الاجتماعية في رأس برامج أحزابهم ... واليوم بالذات برغم الحرب وأهوالها لا يفتأ «ويلز» و«برنارد شو» و«برستلي» يرسمون الاتجاهات التي ينبغي أن يَتجه إليها بعد الحرب، لا الشعب البريطاني وحده، بل البشر كافة ... فهم يبغون انقضاء عهد الشقاء الاجتماعي وبزوغ عهد يستطيع أن يعيش فيه كل فردٍ حياة جديرة بالكرامة الآدمية، فلا إغراق في البؤس ولا إغراق في الترف، بل نظامٌ يقوم على التوازن الاجتماعي والتضامن والتعاون! ... نعم، الكتَّاب والمفكرون هم قادة الإصلاح، وهم واضعو أُسسه وخططه في كل زمان ومكان!

ولئن كانت حركة الإصلاح الاجتماعي في مصر قد تأخرت حتى اليوم؛ فذلك سببه تقصير الكتَّاب والأدباء. إني أتَّهم بملء فمي الأدب المصري بهذا الجُرم!

إن الأدب في مصر لم يكن إلى عهود قريبة غير حِلية عاطلة في معاصم الأدباء ... لقد كان يعيش هؤلاء الكتَّاب، لا على هامش المجتمع فقط، بل على هامش حياة الآخرين من أصحاب الجاه أو الثراء ... لم يكن الأدب في مصر إذَن أداة تسجيلٍ وتوجيه لشئون المجتمع، ولم تكن أقلام الكتَّاب أبواقًا توقظ النائمين، ولكنها كانت معازف ينعس على أنغامها المترفون ... وإذا كان هؤلاء هُم كتَّاب أمة، وهذا هو أدبها، فلا عجب إذا ظلَّت حال المجتمع على ما نراه اليوم!

على أن الأمر بالضرورة قد تغير الآن ... وإنك تستطيع أن تقول: إن الأدب في مصر يتِّجه في الطريق الصحيح، وإن كثيرًا من الكتَّاب المعاصرين نشروا كتبًا وأفكارًا تتصل بصميم المجتمع، وإن آراءهم تُسمع وتُحترم وتُؤثر أحيانًا في اتجاهات الحياة العامة!

– كنتم أول من اقترح منذ عامين إنشاء وزارة الشئون الاجتماعية في حديثكم المشهور عن النظام البرلماني، وها هي ذي قد أُنشئت!

– إني اقترحت أن يُعدَّل اسم وزارة الأوقات واختصاصها، وتُجعل «وزارة الأوقات والحياة الاجتماعية» بهذا النص، وكانت فكرتي في ذلك أن يَتسنى تحويل أموال الأوقاف إلى وجوه المنافع الاجتماعية المثمرة، كالملاجئ والمستشفيات والنوادي الرياضية ... إلخ ... ولكن فكرتي قد أدَّت إلى إنشاء وزارة مستقلة لشئون المجتمع، فضاعف ذلك التفاتَ الناس إلى الفكرة الاجتماعية في ذاتها ... وكان في مجرد وجود هذا الهيكل الرسمي المخصص للمسألة الاجتماعية أقوى دعاية لهذه المسألة في أنحاء البلاد. مما جعل الشعب كله يهتم بالمسألة الاجتماعية بعض اهتمامه بالسياسة، وأصبحت تُثار في البرلمان قضايا الفلَّاح والعامل وحقهما في حياة إنسانية معقولة، وحصة الفقير وحقه في معونة الغنِي، وأصبحنا نسمع كبار الأمة يتحدثون عن ضرورة الرقي بمستوى حياة الشعب، وكثرت المحاضرات في كل مكان، وتكوَّنت جمعيات الإصلاح، وارتفعت أصوات الرحمة من القلوب وكلمات العدالة والإنصاف من الأفواه، كلها مجمعةٌ على أنه ينبغي وضع حدٍّ لما نراه من استئثار مئات من أهل هذه البلاد بالخيرات، وترك الملايين في جوع وعُري كالسائمات!

ولكني أقول باعتباري كاتبًا: إن الأمر لم يَعُد في حاجة إلى توجيه، فإن حال الشعب الآن لا يختلف فيها اثنان، وإن قادة الرأي ورجال الأمة ومفكريها يعرفون علل الشعب أتم معرفة، ويوضحونها ويصفُون لها العلاج ... وفي كل يوم يزداد عدد هؤلاء المفكرين والدعاة، وتتسع دائرة المصغين إلى رسالتهم، إلى أين يأتي اليوم الذي تصبح فيه المسألة الاجتماعية هي المسألة الأولى في الدولة: لها صحافتها ولها ساستها، وعلى أساسها تتقدم الأحزاب إلى الحكم، ويكون النجاح أو الإخفاق في تحقيق برامجها هو الذي يُبقي الوزارات أو يسقطها!

فها أنت ذا ترى ما أرمي إليه، إن المسألة الاجتماعية عندنا هي في طور «الهواية» ولن تدخل في طور «العمل الجديِّ» إلا إذا طالب بها الشعب نفسُه، ولما كنا في نظام ديمقراطي فإن الشعب عندئذٍ يكوِّن أحزابه وينتخب ممثليه طبقًا لهذه المطالب؛ فإلى أن تصبح المسألة الاجتماعية في مصر ذات تأثيرٍ مباشرٍ في أداة الحكم، كالمسألة السياسية سواء بسواء، فليس لنا أن نقول إن في مصر مسألة اجتماعية على الإطلاق!

«كادر» المقامات

إني مُقرٌّ بالتخفيض الذي حدث في «كادر» المرتبات؛ فقد آن لهذا المخلوق الذي يسمونه «الموظف المصري الكبير» أن يتواضع لله وللناس، هذا الآدمي الذي خلقه الله بمواهبَ تساوي عشرين جنيهًا في الشهر، فقدَّرت له الدولة مواهبه بمائة جنيه في الشهر! ... هذا الآدمي الذي ألقت به الطبيعة على الأرض، ليزرع بسواعده العارية عملًا مسئولًا، ويحصد ثمرًا معقولًا؛ فإذا هو قد انزوى بين أوراق فارغة على مكتب مساحته فدان ليحصد آخر كل شهر غلَّة ٥٠٠ فدان! ... هذا الآدمي الذي صنعت له أجيال الشباب المصري في نفسها تمثالًا ذهبيًّا تعبده، فصرفها عن الالتفات إلى المغامرات الحرَّة العظيمة التي قام بها أشخاص اسمهم «فورد» و«روكفلر» و«كروب» بل حتى أشخاص في المحيط المصري اسمهم «عدس» و«بنزايون» و«موصيري» ... هذا المَثل الأعلى الحكومي الذي غرسته في نفوسنا المرتبات الضخمة لعمل «الروتين» الفارغ، هو الذي أفقدنا عُدَّتنا من الرجال الأكفَاء المنتجين، وهو الذي أضاع من أيدينا ميادين الثروة الحقيقية، فاحتلها الأجانب الأحرار، أصحاب النشاط الواقفون بالمرصاد! ... تخفيضٌ آخر ينبغي أن نفكر فيه بعد أن انتهينا من كادر «المرتبات» ذلك هو كادر «المقامات»!

«مقاماتنا» أيضًا متضخمةٌ أكثر مما ينبغي ... تضخُم غير طبيعي، وهو ما قد يُسمى في عالم الطب بالانتفاخ، وفي عالم الاجتماع «بالنفخة»، وكلاهما فيما أعتقد شيء واحد وعلته واحدة، وكلاهما إذا فُتح بالمشرط وُجد بداخله «هواء» فهي مجرد أسماء لا معنى لها، وهي لا ترفع ولا تخفض ولا ينبغي لها أن تفعل، يكفينا أن ننظر حولنا فلا نجد أمة واحدة من تلك الأمم المجيدة التي تعجُّ بالعظماء في مختلف الفروع والأعمال قد سارت على ما نسير عليه نحن الأمة الصغيرة الفقيرة؛ فإن «مستر تشمبرلين» هو بلا شك من أرفع رجال الأرض مقامًا في العصر الحاضر، ومع ذلك قد يشارك «مستر جون» كُمساري

المترو في لندن لقبه المتواضع، و«مسيو دلادييه» هو اليوم من أقطاب العالم ولا لقبَ عنده إلا ما عند «مسيو ريمون» خادم المطعم الذي يأكل فيه ... تلك هي العظمة، وتلك هي الديمقراطية! ... بل إن «الهر هتلر» هو أيضًا لا يمتاز عن «الهر شاخت» سائق سيارته في اللقب! ... قد يُسند إليه أحيانًا لقب «المستشار» غير أن هذا حقيقة لا لقب ... بل أقل من حقيقة؛ لأن «هتلر» لا ينتظر حتى يُستشار في أمر من الأمور، وهو المتصرف وحده في مصير بلده، المؤثر في أقدار الشعوب. ولماذا نذهب بعيدًا وقد كان الإمبراطور العربي العظيم «عمر بن الخطاب» لا يُنادى إلا بلفظٍ واحدٍ: يا «عمر».

إنه في رأيي داء تُصاب به غالبًا الأمم الصغيرة التافهة، فهي كالطفل يحب كل ما هو برَّاق طنَّان أجوف، وليت هذا الداء محصور في طبقة كبار الموظفين وحدهم، بل إنه مع الأسف قد تعدَّاه إلى جسد الأمة كلِّه، فإذا كل مَن لبس «بدلة» يتوق أن يناديه الجميع بلقب «بك» ويكتب له الجميع «صاحب العزة»، وأصبح لقب «أفندي» سبًّا فاحشًا! ... ومَن أراد أن يشتم أحدًا في الطريق العام أو على صفحات الجرائد أو على مظروف خطاب، فما عليك إلا أن يقول له: يا «أفندي»!

مَن المسئول عن هذا المرض الخطير؟ ... لا أشك في أنهم هم الموظفون الكبار، أو قادة الأمر في البلاد، من أصحاب «الرفعة» و«الدولة» و«المعالي» ... إلخ، فهم بتكالُبهم على المظاهر الفارغة قد علَّموا الشعب أن يحترم الألقاب أكثر من احترامه لمجرد الأعمال!

فلعلَّ الروح الجديد الذي يسري اليوم في مصر الناهضة المستقلة يدفعها في طريق العمل والبطولة، ويحفزها أيضًا على التفكير في تغيير نظرتها إلى الألقاب، وتعديل كادر المقامات، بما يتفق مع الروح السائد الآن في العالم ومع طابع العصر الحاضر في كل دول الأرض. الديمقراطي منها وغير الديمقراطي!

حديث نُشر عام ١٩٣٨م

مصر والشعار الدولي

قرأت تعقيبكم على إثارتي لحرية خلع «الطربوش» فاسمحوا لي أن أُبدي بعض حججي وأسبابي، وأبدأ فأقول إن لا محل للقلق والخوف من إضعاف الروح القومي إذا خُلع «الطربوش»؛ فإن الروح القومي هو في القلب الحار لا في ذلك «القرطاس» الأحمر. وقد يكون هنالك محل الخوف لو أننا كنا أولَ أمةٍ في الأرض قادمة على هذا التغيير ... أمَا وقد فعلَت ذلك قبلنا أممٌ شرقية، هي الآن خيرٌ منا في قوة روحها القومي، فليس لنا إذَن أن نتردد أو نخاف، فما من أحدٍ يستطيع أن يقول إن اليابان ذات التقاليد الشرقية العريقة قد فقدت روحها القومي يوم لبست ولبس مليكها — وهو ذو صفة دينية مقدسة — اللباس الدولي الكامل، وما من أحدٍ يستطيع أن يقول إن النبي العربي كان له زيٌّ خاص، فهو قد لبس القَلنسوة ولبس اللامة، ولم يكن هنالك فارق في اللباس بين مسلم ومسيحي ويهودي!

واليوم وقد اتَّجه العالم كلُّه في حضارته القائمة هذه الوجهة الجميلة، وسَنَّ هذه السُّنة الحميدة التي ترمي إلى وحدة الزي في الدنيا قاطبة، هذه السُّنة التي عرفها الإسلام منذ نشأته، فلم يحفل بزيٍّ أو بلباسٍ حتى لا يجعل بني الناس فوارق غير ما لبسته أرواحهم ونفوسهم!

اليوم وقد شعرنا بحاجتنا إلى الوحدة والمساواة داخل حدود بلدنا بإزالة الفوارق التي تشطر السكان إلى طائفتَين غير متعادلتَين ... اليوم ونحن مقبلون على حياة خارجية قوامها الاندماج في عصبة الدول المتحضرة، أية فائدة لنا أن نضع بيننا وبين أمم الأرض ذلك الفارق الظاهر الذي ينادي في كل حين بتخلفنا وحدنا دون غيرنا من الأمم الشرقية المسلمة وغير المسلمة، التي أعلنَت للعالم نهضتها، وقامت تجلس جنبًا إلى جنب مع أرقى الدول حضارة؟!

أما القول بأن تغيير لباس الرأس قد يجرُّ إلى تغيير اللغة أيضًا؛ فالجواب عليه أن ننظر كذلك إلى غيرنا من الدول التي تُماثِلنا في الحال، ولنبحث: هل غيَّرت «اليابان» و«الصين» و«إيران» و«العراق» لغتها؟ … بل متى كان الاتحاد في الزي يوجِب الاتحاد في التفكير؟ إن الملحوظ في حضارة اليومِ أنها وحَّدت الزي في شعوب الأرض مع عدم المساس بشخصية كل شعبٍ وثقافته!

وها هي ذي «أمريكا» تُماثل «إنجلترا» في الزي وتتكلم الإنجليزية مثلها؛ ومع ذلك فإن الأدب والثقافة وطريقة التفكير عند «الأمريكان» هي غيرها عند «الإنجليز».

لا ينبغي إذَن أن نتمسك بكلمة «الشعار الوطني» لشعبنا أو لحكومتنا المصرية؛ فإن مستقبلنا قد تغيَّر، وبعد أن كنا شعبًا منعزلًا قد أصبحنا شعبًا منضمًّا إلى هيئة الشعوب الأخرى، لنا ما لهم، وعلينا ما عليهم، فالأحرى أن نتمسَّك منذ اليوم بكلمة «الشعار الدولي الرسمي» لأمم العالم، كما تفعل كل أمةٍ تركت عُزلتها وظُلمتها وخرجت إلى الحياة والمجتمع والنور!

وبعدُ، فإني لشديد الإيمان بالتطور الطبيعي لما أراه من تطور الشرق السريع نحو حياة جديدة وتفكير جديد قوامه الخروج من العزلة والجمود إلى التجدد والتعاون مع العالم، وإني لألحظ تقدُّم مصر في هذه السبيل تقدُّمًا يشبه الركض على الرغم من المعارضة الكلامية الظاهرة؛ فالمرأة المصرية قد غيرت زيها في سكونٍ وشجاعة، فوافقها الرجال دون جدال!

هذا يدلُّني على أن مصر تتحرك بالفعل وتسير، وإن كانت لا تزال تسير مفتونة بالكلام والمناقشة أثناء السير! … نعم، كل هذا يثبِّت عقيدتي أنه لن يأتي عام ١٩٥٠م حتى تكون مصر متحدة مع العالم المتحضر في زيه الكامل المعروف، تلبية لنداء التطور الطبيعي للأشياء!

من ردٍّ على تعقيب «خليل ثابت» عام ١٩٣٦م

المعنى الإنسانيُّ لوحدة الزيِّ

مرة أخرى أناقش الحجة الوحيدة القائمة في جانب «الطربوش» وهي كلمة «الشعار الوطني» وأغلب المصريين مفتونٌ بهذه الكلمة، وأغلب المصريين ما زال يعتقد أن من المفاخر أن يتميز بلباس خاص، شعبٌ صغيرٌ عن بقية شعوب الأرض القوية المتحضرة. وقليلٌ من المصريين يرى من المفاخر أن يتمسك رجلٌ أو رجلان بلباس أحمر فاقع صارخ، بين مئات وألوف من الرجال المحترمين المتحدين في زيٍّ معروف! ... لقد لحظ بحقٍّ أحد المفكرين أثناء سياحة طويلة في آسيا وأفريقيا أن الشعوب المنحطة هي أكثر الشعوب تمسكًا بتقاليد الزيِّ، وأكثرها حبًّا في التميز عن غيرها من الأمم بأرديةٍ صارخة الألوان ... وأزيد أنا على هذا المفكر بقولي: إن فكرة التميز بشعار خاصٍّ ليست فقط فكرة «بربرية» في عصرنا الحاضر، ولكنها تدل كذلك على ضعف الإدراك في أممٍ من الأمم؛ فإن من علامات الإدراك الضعيف عدم اتساع أفقه للأفكار الإنسانية، ولا ريب عندي الآن أن خوفنا وترددنا في مسألة كمسألة الطربوش، وتشدُّق الكثيرين بكلمة «القومية»، سببه الوحيد أننا لم نزل في حالة «عزلة ذهنية» لا أكثر ولا أقل؛ فنحن في الواقع لم نتصل حتى الآن بالعالم المتحضر اتصالًا يشعره بوجودنا ويشعرنا بأننا جزءٌ منه، فنحن في حقيقة الأمر شعب صغير لا وجود له حتى الآن على خريطة الفكر الإنساني المتحضر. إنما نحن زُراع وخُدام وعبيد يعيشون على هامش الحضارة، يخدمون المصالح المثالية الأجنبية، التي قبضت على وادي النيل منذ عشرات من الأعوام! ... هذا كل دورنا الذي نلعبه حتى الساعة فنحن لم نقدم للعالم ما يدله على مساهمتنا في التقدم الإنساني؛ لأن الفكرة الإنسانية نفسها بعيدة عن ذهنيتنا ... إنا لا نفكر إلا في أنفسنا وفي حياتنا الصغيرة، وما يحيط بها من عوائدَ باليةٍ ومعتقداتٍ قديمةٍ وتقاليدَ عتيقة ... إن العالم المتحضر لا يهمُّه أن يعرف عنا شيئًا، لأننا ليس عندنا ما يستحق أن يعرفه العالم المتحضر! ... إنما نحن

نعيش كفصيلة من الدواجن وكفى! ... وهذا يسخرنا لحسابه تسخيرًا ماديًّا وكفى! إني لا أقول إن خلعنا «الطربوش» سيأتي بالأعاجيب وسيغير هذا الموقف، كلَّا مطلقًا. إنما أقول وأصرُّ على القول: إن ما رأيته من اتجاه الناس نحو استنكار كل تغيير للبالي العتيق، هذا الاستنكار العنيف وتكالب شباب الجيل الجديد مع الأسف الشديد على الاحتفاظ بروح «القبيلة» الجامد ... كل هذا أدهشني وأحزنني ودلَّني على أن عقليتنا في ذاتها لم تزَل تميل «إلى العُزلة الذهنية»، وأن جراثيم «البربرية» ما زالت متأصلة في نفوسنا، وأن أمامنا وقتًا طويلًا قبل أن نهضم الأفكار الإنسانية في ذاتها، ونصبح أهلًا للانضمام إلى هيئة الأمم المتحضرة، التي لا تتميز باختلاف الزي واللباس، والتي اتجهت كلها إلى وحدة الزي بوحدة الإنسانية!

البعث

حوريس:

انهض، يا «أوزيريس»!
أنا ولدك «حوريس
جئت أُعيد إليك الحياة!
جئت أجمع أعظمك،
وأربط عضلاتك،
وأصل أعضاءك!
أنا «حوريس» الذي تكون أباه.
«حوريس» يعطيك عيونًا لترى.
وآذانًا لتسمع، وأقدامًا لتسير،
وسواعد لتعمل!
ها هي ذي أعضاؤك صحيحة،
وجسدك ينمو،
ودماؤك تدبُّ في عروقك!
إن لك دائمًا قلبك الحقيقي،
قلبك الماضي!

الميت:

إني حي، إني حي!

«كتاب الموتى»

«وحوريس» ليس إلا «الشباب» يُعيد الحياة إلى ماضيه الميت. نعم، هو «الشباب»، الذي يكون أباه الوطن ... وقد أعطاه بالفعل عيونًا يرى بها غابره العظيم في حريته، وحاضره الذليل في قيود الغرباء، وآذانًا يسمع بها ضحكات السخرية من أفواه الجبناء الذين جاءوا يستغلون رقاده ويستلبون خيراته، كما أعطاه أقدامًا يسير بها كي يثبت لهم أنه حي، وسواعد يعمل بها على تشييد الصرح المهدود! ... إن أعضاء الوطن صحيحةٌ لم ينقُص منها عضو، وها هو ذا جسده يتحرك وينمو، والدم يجري في شراييه، والشباب على رأسه يصيح:

«إن لك دائمًا قلبك الحقيقي ... قلبك الماضي!» ويُخيل إليَّ أني أسمع الوطن من كل جانبٍ يُلبِّي النداء يُجيب الشباب الأبناء: «إني حي، إني حي!»؛ إني دائمًا أؤمن بأن مصر لا يمكن أن تموت؛ لأن مصر منذ الأزل ظلَّت تعمل وتكدُّ آلاف السنين لهدفٍ واحد، مكافحة الموت ... ولقد فازت مصر ببُغيتها، كلما ظنَّ الموت أنه انتصر، قام «حوريس» من أبنائها يصيح: «انهض، انهض أيها الوطن! ... إن لك قلبك، قلبك الحقيقي دائمًا، قلبك الماضي...»، وإذا الموت يتراجع أمام صوت مدوٍّ من أعماق الوطن:

«إني حي ... إني حي!».

دولة العُميان

«هل سمع أحد حتى الآن عن أعمى لا تدرك
يده اليمنى ما تصنعه يده اليسرى؟!»

إنها ليست على مثال تلك الدولة من العميان التي صوَّرها الكاتب الإنجليزي «ويلز» في إحدى قصصه ... فدولته تسير على الأقل تبعًا لمنطق خاص ... وتجري الحياة فيها على نهج متواضع عليه ... أهلها لا يبصرون بعيونهم حقيقة ... ولكنهم استعاضوا عن العين بحواسَ أخرى أظهرت لهم حقائق الوجود في أشكال جديدة، وأنشأت لهم مجتمعًا قائمًا على قواعدَ خاصةٍ به ... قد يُنكرها الغريب عنهم، ويعجب لها غير الخاضع لظروفهم ... ولكنها في محيطهم هم طبيعة صادقة معقولة ... تعهدتها يد الخبرة والعناية، وأدارتها في فلك الأيام متسقة منتظمة مصقولة ... لا تلمح في بنائها ثغرة تنمُّ عن عبث أو فوضى أو خرق أو هوس!

أما دولتنا التي نتحدث عنها هنا فمختلفة كل الاختلاف ... فالعمى فيها من نوعٍ معروفٍ ... وهل سمع أحد حتى الآن عن أعمى لا تدرك يده اليمنى ما تصنعه يده اليسرى؟! ... هذه العجيبة قد وقعت ... ولم تقع مرة ... ولكنها تقع كثيرًا ... وتكاد تكون من الظواهر العادية التي تحدث في كل يومٍ ... ولعل أكثرنا ما عاد يعجب لحدوثها ... وهل دهش كثير من القُراء وهم يطالعون خبر تلك المصلحة التي تملك قطعة من الأرض مناصفة مع مصلحة أخرى، فأجَّرت الأولى نصيبها لإحدى الشركات بسعر ٣١٥ جنيهًا للفدان بينما أجَّرت المصلحة الأخرى نصيبها لذات الشركة بسعر ٢٠ جنيهًا للفدان ... وظل الأمر على ذلك عشر سنوات، بلغت فيها خسارة الدول ١٤ ألف جنيه ... فلما سُئلت المصلحة الأخيرة في الأمر قالت: إنه لم تكن تعرف أن المصلحة الأولى كانت تؤجر نصيبها

بذلك السعر المرتفع! ... وهاتان المصلحتان الشريكتان تابعتان لحكومة واحدة في دولة واحدة! ولكنها دولة العميان التي لا تعرف فيها اليد اليمنى ما تصنعه اليد اليسرى!

ومثل هذا كثير في هذه الدولة ... فبينما تندفع أفواج الطلاب في التعليم الثانوي تطلب أمكنة في بعض المدارس المزدحمة ... يهمس نُظَّار بعض المدارس الأخرى قائلين: إن لديهم متسعًا للطلبة وفرجًا ... وأولئك لا يعرفون، وهؤلاء لا يتكلمون ... والوزارة لا ترى هذا ولا ذاك!

وفي كل عامٍ تطرق أبواب الكليات جيوش من الطلبة، فتوصِد دونها الأبواب، كأنها جيوش كلابٍ تهجم على طعام لا حقَّ لها فيه ... وما من أحد يُسائِل نفسه: ما مصير هؤلاء المطرودين؟ ... وإذا نجحنا في نفض أيدينا منهم هذا العام، فماذا نحن فاعلون بأضعافهم فيما يُستقبَل من أعوام؟ ... في دولة العُميان: لا حساب للغد، ولا إدراك للزمن!

وفي كل جهة من جهات الحكومة موظفون، لهم عين المؤهلات ويقومون بعين العمل ... ولكنهم في هذه المصلحة يقبضون أجرًا ملائمًا ... وفي مصلحة أخرى ينالون أجرًا لا يمسك الرمق ... فإذا أبدَوا العجب لهذه الفوضى سمعوا ألفاظًا غريبة ... مثل «الكادر» و«التنسيق» ... وغير ذلك من هذيان العميان!

وفي كل ناحية من نواحي الإيراد أناس يدفعون للدولة ضرائب وأناس لا يدفعون ... وربما كان الذي لا يدفع هو الأقدر على الأداء؛ فإذا بحثنا في النِّسب والمقاييس، التي يؤدي بمقتضاها الناس ضرائبهم، وجدنا عجبًا من التخبط وضياع العدالة! ... فأيدي الدولة هنا لا تدري في أي جيبٍ توضَع ... وإذا دخلت بالمصادفة في جيب من الجيوب، لا تعرف كم تدفع وكم تأخذ!

ما العلاج لهذه العاهة المتمكنة في هذه الدولة ... تلك العاهة التي أدَّت إلى ثورة الطوائف وتخبُّط النظام؟!

لو كان الأمر بيدي لأشرتُ بصنع «عينٍ» مهمتها أن تُبصر لهذه الدولة، وأن تربط أعضاءها بعضها ببعض، وأن ترى لها الطريق اليوم وفي المستقبل ... ولنطلق على هذه العين اسمًا من تلك الأسماء المألوفة لدينا ... فليكن اسمها مثلًا: «وزير الخطط» أو «وزير المشروعات» أو «وزير التناسق الحكومي»! ... لا تتبعه وزارة من هذه الوزارات المعروفة ... ولا يكون هو على رأس وزارةٍ من النوع المعروف، لكنه يوضع في مكان مستقل ... مع جملة من الخبراء والأخصَّائيين يرسمون خريطة دقيقة لا تَحيُّز فيها ولا محاباة ...

يوضع فيها كل موظف وكل فرد وكل عامل وكل ممول وكل منتج في مكانه الذي يكفل له الإنصاف في الحقوق والواجبات، ويدرسون حاجة البلاد في كل مرافقها، في حاضرها ومستقبلها ويضعون الخطط الثابتة، ويُهيئون المشروعات للسنوات الخمس أو العشر ... في التعليم والري والزراعة والتجارة والصناعة ... إلخ!

إنَّ في تولي هيئة واحدة بحثَ هذه المشروعات — جملة في دار واحدة — أكبر ضمانٍ للتناسق والنظام، لأن كل هذه الفروع المختلفة في الظاهر مرتبطٌ بعضها ببعض في الباطن ... لقد قيل إن فتح أبواب التعليم على مصَارِيعها في بعض الكليات لا يؤدي في مصر إلى خير ... لماذا؟ ... لأن النشاط التجاري أو الصناعي الذي يُستوعب في أوروبا أكثر الخريجين، متخلِّف في بلادنا عن النشاط العلمي النظري!

لا بدَّ إذَن من إيجاد نوعٍ من التنسيق بين نشاطنا التعليمي ونشاطنا الاقتصادي ... وقُل مثل ذلك في كثيرٍ من نواحي خططنا ومشروعاتنا التي تحتاج إلى دراستها جملة، وتحت قيادةٍ واحدة، حتى لا يؤدي البحث والتنفيذ إلى ذلك التخبط الذي نرى صدامه كل يوم بين وزارة ووزارة!

كارثتنا هي أن كل وزارةٍ لا ترى في الوجود إلا نفسَها ... فهي تضع مشروعاتها مستقلة، وقد عصَبَت رأسها بقناع، فلا ترى عينها العمياء شيئًا ... ولا تمسُّ يدها إلا ورق ملفاتها هي.

وسيظل الحال هكذا طويلًا في دولة العميان، إلى أن نفطِن آخر الأمر إلى ضرورة إيجاد تلك «العين» التي تُشرف من علٍ على أمورنا جملة، ببصر حادٍّ نافذ خبير!

في المرأة

المرأة والمجتمع

إنَّه ليُدهشني حقًّا أنَّ بعض الشباب المثَّقف نادى يومًا بفصل الجنسين في الجامعة المصرية، في وقتٍ أثمر فيه نظام الدراسة المتَّحدة وأخرج لنا فتيات حائزات على «الليسانس» و«الماجستير» و«الدكتوراه»، هن فخرُ مصر، وهن أنصع دليلٍ على رُقي مصر العقلي في الوقت الحاضر ... إن القول بأن المرأة للبيت لا لمزاحمة الرجل، لا يَحُول مطلقًا دون تثقيف المرأة تثقيفًا تامًّا، لتكون زينة البيت، وأستاذ الطفل، ومعلِّم الجيل! إن المرأة ليست قطعة من أثاث البيت توضع فيه بجهلها وعقلها المغلق ... وهي ليست خادمًا تُطعم الرجل وتغسل له ملابسه، ولكنها شريك محترم ينبغي أن يجد فيه الرجل متعة عقلية تُحبِّب إليه البيت.

أمَا شبِع رجالنا طوال الأجيال الماضية جلوسًا في المقاهي والحانات يأنس بعضهم ببعض، هاربين من وحشة المنزل الذي لا يحوي غير نساءٍ كالخادمات؟ ... نعم ... إن المرأة للبيت، ولكنها لكي تكون بحقٍّ ملكة البيت وقرة عينه يجب أن تتثقف أكمل ثقافة! ... إن من النساء في صدر الإسلام من فُقنَ الرجال في فنون الشِّعر والأدب والعلم والجدل! ... وقد كان لبعضهن مجالس مشهورةٌ يحضرها رجال الدولة ونوابغ الشعراء والأدباء والمغنين! ... وكان ذلك في عصر لم تُزاحم فيه المرأة الرجل في المناصب والأعمال!

كذلك فلنقُل عن ثقافة المرأة الأوروبية يوم كانت صالوناتها تضمُّ أعظم العباقرة، دون أن تخرج المرأة وقتئذٍ من أجل ذلك عن وظيفتها، فتُزاحم الرجل في أسباب معاشه ... لا ينبغي إذَن أن نخلط بين أمر تثقيف المرأة وبين أمر وظيفتها.

إنَّ المرأة زهرة البيت وروحه، بل زهرة المجتمع وروحه، كلنا في ذلك متفقون، فلنجعلها إذَن زهرة، وهل تعرف زهرة أينعت دون أن تتعرض قليلًا للشمس والهواء؟ ...

فلنحاذر كل الحذر من حبس المرأة ... فإن ذلك حبس لعقلها وموت لشخصيتها، ولنذكر أننا اليوم ندفع غاليًا ثمن سجن المرأة المصرية في الماضي، فهي كلما دعتها الظروف إلى مواجهة الحياة والمجتمع اهتزت قدماها ضعفًا واحمرَّ وجهها حياءً، وتلعثمت وتعثرت في هزالها النفسي والفكري، وظهرت بمظهر يدعو إلى الرثاء والإشفاق، وبدت للأعين أقرب إلى الخادمات المحجوبات منها إلى سيدة مهذبة قوية بشخصيتها وتجاريبها، واثقة من نفسها ومن احترام الناس لها ... كل هذا حدث؛ لأن المرأة في مصر ذَبل عقلها من طول السجن ولم تعتد مواجهة المجتمع منذ الصغر ... إن إقصاء المرأة عن مجتمعنا كما يُقصى الحيوان الحقير، جريمة فظيعة، هي القتل المعنوي بعينه لا أكثر ولا أقل، وهو الامتهان لكرامتها ولآدميتها امتهانًا يجب عليها أن تثور من أجله، وأن تُقيم الدنيا وتُقعدها ولا تسكت عنه كما سكتت فيما مضى من أجيال، المسألة مسألة حياتها أو موتها، وإن الذين يريدون قتلها باسم الدين — والدين بريءٌ — لا يدركون أنهم بذلك إنما يقتلون أنفسهم بأيديهم!

إنَّ عقل المرأة إذا ذبل ومات فقد ذبلَ عقل الأمة كلِّها ومات!

المرأة والفن

إنِّي — إذ أتكلم عن الفنِّ — لا يسعني إلا أن أعترف مرغمًا أنَّ المرأة هي روح الفن، ولو لم توجد المرأة على هذه الأرض فربما وُجد العلم، لكن المحقَّق أنه ما كان يوجد الفن. ذلك أن الإلهام الفني هو نفسه قد خُلق على صورة امرأة، وأن لكل لونٍ من ألوان الفن عروسًا هي التي تنثُر أزهاره على الناس ... ما من فنانٍ على هذه الأرض أبدع شيئًا إلا في ظل امرأة، وهذا القول مني غريب، ولأُبادر بتوضيح قصدي حتى لا يُقال إني رجعت إلى فضيلة الحق، وأعني الحق الذي تراه المرأة! ... كلَّا ... إني لم أرجع إلى هذه الفضيلة بعدُ ... وكل ما في المسألة أني دائمًا أُفرِّق بين المرأة كشيءٍ يوحي بالجمال، وبين المرأة كمخلوقٍ يريد أن يستأثر بكل شيءٍ في حياتنا!

إن عداوتي لهذا المخلوق لن تنقطع ما دُمت أخشى منه ... إن عداوتي ليست إلا دفاعًا عن نفسي، فلو أن المرأة تمثالٌ من الفضة فوق مكتبي، أو باقةٌ من الزهر في حجرتي، أو أسطوانةٌ موسيقيةٌ أنطقها وأسكنها بإرادتي! لما كان لها عندي غير تقديسٍ وإكبارٍ لا يحدُّهما حد، ولكنها للأسف شيءٌ يتكلم ويتحرك، وهي أحيانًا كالطفل يلقي من النافذة كل شيءٍ ثمين، ويجلس على حافتها يضحك ضحكة الانتصار ... على أن الإنصاف يقتضيني أن أقول: إن المرأة إذ تُحطِّم من جانبٍ فهي تبني من جانبٍ ... إنَّها كالطبيعة، في يدَيها العبقريتَين؛ عبقرية الفَناء وعبقرية البناء، وإنَّه لمن المستحيل أن نرى في التاريخ حضارة قامت بدونها، ولا انحطت بدونها، وإن عرشها في مملكة الفنِّ أظهر العروش! ... إنني أستطيع أن أقول على سبيل المثال إن أجمل «الفن الرومانتيكي» الفرنسي إنَّما نبع تحت أقدام «مدام ريكامييه»، وإنَّ صالونات السيدات في أوروبا، ومجالس الشِّعر

والغناء في الشرق عند العرب، هي التي أخرجت أجمل ما في الغرب والشرق من شِعرٍ وآدابٍ وفنون!

ولا أستطيع أن أضرب هنا الأمثلة، ولكن مَن يفتح أي كتابٍ من كتب العرب القديمة يرى وصف تلك المجالس التي كانت تتصدرها نساءٌ كالشموس، وتضمُّ فحول الشعراء والمُغنين، ويقرأ تلك الأخبار التي لا تنتهي عن ذِكر الجواري المثقفات والنساء الشريفات، اللائي كن ينظمن — في السر والعلن — تلك المجالس التي فيها نُظم أجمل الشِّعر، وتفتحت أزاهير أنبغ القرائح، ولـ «علية» أخت «هارون الرشيد» ذوقٌ في فنون الشِّعر والغناء، أثَّر فيمن حولها من كبار الفنانين والشعراء.

و«مدام دي بومبادور» أبرز يدٍ في حركة الفكر والفن في عصرها. ففي الغرب هي المرأة وفي الشرق هي المرأة، وحيثما وُجدت المرأة صاحبة الذوق وُجد في الحال الفن، ونهض الفكر، وقامت الحضارة!

إذا قيل: إن مصر الحديثة لم ترَ بعدُ فنًّا ناهضًا، ومن ثم لم تبدُ أمام العالم بعدُ في ثوب الأمة المتحضرة؛ فإن السبب الوحيد أن المرأة المصرية ذات الذوق والروح ما زالت في مصر نادرةَ الوجود!

إن اليوم الذي تُعنى فيه المصرية باقتناء «لوحةٍ زيتيةٍ» صغيرة، أو «إسكيس» بسيط، ينمُّ عن ذوق، تُزين به جدار منزلها هو اليوم الذي يزهو فيه عندنا التصوير، واليوم الذي تهتم فيه المصرية بشراء نسخةٍ من كل كتابٍ جديدٍ للمؤلف الذي تفضِّله، وتجلد هذه النسخة وتعرضها عرضًا جميلًا، وتتحدث عما فيها من كلامٍ وأفكارٍ في مجالسها، لهو اليوم الذي يرقى فيه عندنا الفكرُ والأدب!

وإن اليوم الذي توجد فيه المرأة العظيمة التي تُكرِّس بعض همِّها، لإيقاظ همم الفنانين، وتنشيط الحركة الفكرية؛ لهو اليوم الذي نقترب فيه من المدنية الحقيقية ... نحن في حاجة إلى «البيت المصري» الذي تنمو فيه كل ملَكات الطفل الجميلة!

إن الطفل الأوروبي منذ اليوم الأول الذي يستقبل النور فيه، لا ينام إلا على غناءٍ جميل، وما يمضي قليلٌ حتى تقوده أمُّه في عربةٍ صغيرةٍ إلى الحدائق، فلا يقع نظره الهادئ اللاهي، في غير وعيٍ ولا إدراك، إلا على الطبيعة الجميلة، بسمائها وجنانها، وجداولها، وما يكاد يعي ويدرك بعض الإدراك حتى توضع في يديه كتبٌ لا كتابة فيها ولا كلام، بل صور جميلة ملونة للحيوانات والطيور والمخلوقات، وللطبيعة في مظاهرها الوضاءة الساحرة، فيحسُّ جمال الرسم قبل أن يفقه معنى كلمة «الرسم»، ويطرب لتناسق النغم

قبل أن يعرف ما هو الغناء، ويشعر بتناسب الأوضاع وتجاوب الألوان فيما يحيط به من مظاهر الخليقة، ولما يعلم الكلمات والألفاظ التي يُعبر بها عن كل هذه المشاعر، فهو قد أدرك وجود الجمال عن طريق الإحساس، فلا ينقصه بعدئذٍ إلا إدراكه عن طريق العقل والمنطق، وهو عمل المدرسة والكتب ... على أن مجرد الشعور بوجود الجمال في المخلوقات والأشياء طفرةٌ كبرى في التكوين الروحي للطفل.

فما الجمال إلا المظهر الخارجي والثوب البادي للنواميس العليا، ففي إدراكِ وجوده إدراكٌ خفيٌّ مُبهمٌ لعظمة تلك القوانين التي تُنظم الوجود، وهذا الإدراك هو كل شرف الإنسان وفضله، وهو وحده الذي يميز الإنسان عن سائر الحيوان، فلو شعرت الحيوانات يومًا بالجمال لما لبثت حيوانات دقيقة واحدة. إن أظهرَ عيبٍ في المصرية الآن هو افتقارها إلى الذوق، أي الإحساس بالجمال في الأشياء ... كم من المصريات تعتبر الأزهار في بيتها كضرورة الطعام والشراب؟ ... إذا وصلت المصرية إلى هذه الدرجة من الحس المرهف، وبلغت في دقة مشاعرها حدًّا لا تستطيع معه أن تستغني في حياتها اليومية عن الجمال في الألوان والأصوات والأفكار، فلقد حقَّ لنا أن نصيح فرحين مهللين بحقٍّ: «إن مصر لا تقلُّ رُقيًّا عن أرقى الدول حضارة.» وهذه المرأة المصرية ذات الذوق الرفيع والروح المهذب، الدقيقة الإحساس بكل ما هو جميل، هي نفسها التي تخلق الفنان وتوحي إليه؛ لأنها لا تستطيع أن تكون بمعزل عن أولئك الذين يصنعون الجمال! إنها ستهتم بأمره وتواليه بالتشجيع ولا تتركه حتى تستثير خياله، فالمرأة يجب أن تعلم أن «الفنان» ليس إلا قيثارة، وأن أناملها الرقيقة وحدها هي التي تستطيع أن تُخرج منه أجمل الأنغام.

المرأة والفنان

الفنان الحقيقي هو ذلك الرجل العجيب الذي تزوج «الفن»، فهل مثل هذا الفنان يستطيع أن يتزوج أيضًا «المرأة»؟ هذا أمرٌ اختلفت فيه الآراء ... ورأيي الشخصي أن هذا مستطاع، لو أدركَت المرأة أن حياتها مع هذا الإنسان لا ينبغي أن تُشابه أية حياةٍ أخرى، وأن حياتها ستُبذل بلا ثمنٍ لرجل بذل حياته هو أيضًا بلا ثمن!

نعم ... يجب أن تفهم امرأة الفنان أن كل حياتها ينبغي أن تقدَّم لزوجها الفنان، وأن كل رسالتها في الحياة أن تكفل لزوجها الحياة الهنيئة الجميلة التي في كنفها ينتج ويخلق!

زوجة الفنان هي تلك التي تُعنَى بزوجها، ولا تطالب زوجها أن يُعنى بها! ... هي التي تزيل متاعب زوجها، ولا تنتظر من زوجها أن يزيل متاعبها ... هي التي تتلقى من زوجها همومه ولا تخبره مطلقًا بهمومها! ... هي ذي المخلوق الذي يعيش صامتًا صابرًا باسمًا بجوار الفنان طول العمر، دون أن يشعره لحظة واحدة بوقر هذا الجوار! ... هي التي تقف إلى جانبه دائمًا دون أن يفطن إلى أنها موجودة! ... إن الزوجة التي تستطيع أن تعيش مع «الفنان» هي بالاختصار تلك التي لها رسالةٌ وعقيدة! ... هي التي تستحق بصبرها وتضحيتها أن يقرن التاريخ اسمها باسمه! ... هي التي تضع في قلبها هذه الكلمة: «إنما يعيش الفنان من أجل الفن، وتعيش هي من أجل الفنان.».

المرأة وأشواكها

كثيرًا ما يخلط الناس أمر نظرتي وعلاقتي بالمرأة، وإنهم ليتهمونني أحيانًا بالتناقض؛ إذ يرون أني أحمل عليها مرة، وأُشيد بذكرها أخرى ... والحقيقة أني في كِلا الحالين أعتقد ما أقول!

فالمرأة من غير شكٍّ هي الزهرة المشرقة في بستان وجودنا الآدمي، زهرةٌ لها نضارتها وعبيرها، لكن لها أيضًا أشواكها!

جمال المرأة وفتنتها، هما في نظري أشواكها الحقيقية التي تضع فيها كل سموم سلطانها وسطوتها؛ فالمرأة إنما تُشهر علينا نحن الرجال هذا السلاح، وتقف به في وجه أعمالنا، آمرة فينا وناهية، صائحة بنا أحيانًا أن نقف في طريقنا كما تقف القافلة تحت تهديد قُطاع الطريق لتأخذ منا كل ما عندنا من وقت وقلب ومال وجاه وشُهرة! ... إنها لتُجردنا من كل شيء، وتتركنا عُراة تحت سلطان سلاحها المسلط المخيف!

لعلها تتهمني بالمبالغة، ولكن هل تستطيع امرأة أن تقول لي: إن هنالك امرأة في الوجود تعيش لغرضٍ آخر غير سلب الرجال؟ ... إنك إذا فتحت رأس امرأةٍ لما وجدت فيه غير هذه الغاية: السطو على رجل!

إن الرجل قد يعيش لعمله أو لفكرته، ولكن فكرة المرأة وعملها هما البحث عن الرجل الذي تسلبه لحظاته وكل حياته؛ فإذا نظرَت المرأة إلى رجل مشهور فإنما تنظر إليه بفكرة واحدة؛ أن هذه الشهرة لها، وإذا كان غنيًّا فالمال لها، وإذا كان لبِقًا ظريفًا فكل ذلك لسرورها ولخدمتها!

لست أتكلم بالطبع هنا عن المرأة المجردة من السلاح، ولكني أتكلم عن المرأة ذات الأشواك والمرأة المدججة «بسلاح» الفتنة والجمال! ... وها هو ذا تاريخ البشرية أمامنا، أين هي المرأة الجميلة التي لم تستخدم جمالها في إخضاع الرجل؟ ... كم امرأة في التاريخ

جعلت جمالها في خدمة «غايةٍ أسمى» من إخضاع الرجل؟ ... إن المرأة ليست لها الشجاعة أن تنكِّس سلاح جمالها في وجه الرجل! ... إن المرأة مخلوق «غير سِلميٍّ»، متى وُجد في يدها سلاح تحركت فيها غريزة السطو والحرب ... إن المرأة الجميلة هي عدوُّ الرجل المفكر!

المرأة والعظمة

سألتني إحدى المجلات عن النساء العظيمات في مصر اليوم، فذكرت أربعًا تصلح كل واحدةٍ منهن أن تُمثل ناحية من نواحي العظمة في المرأة: الأولى والثانية معروفتان، والثالثة والرابعة مجهولتان! ... الأولى والثانية رمز لعظمة المرأة الشرقية في المحيط العام، والثالثة والرابعة رمز تلك العظمة في المحيط الخاص!

الأولى: تلك التي شاركت زوجها العظيم في قيادة حركة تحرير البلاد، وتعرضت معه لكل الأخطار، وقالت له في شجاعة يوم علمت أن الشجاعة قد تكلفه الحياة: «امضِ في طريق الجهاد وأنا معك!» ... وحملَت عنه وهو في منفاه لواء الثورة وقاسمته إلى وفاته بيض الأيام وسودها ثم بقيت وحدها بعده رمز الأمة المتحدة، لا تميل إلى يمين ولا إلى شمال، وتعصف حول أقدامها عواصف الحزبية وهي شامخة، كأنها «الوحدة القومية» صُبَّت في تمثال ... إنها بقيت جديرة بزوجها في حياته ومماته، بل إنها بقيت تُذكرنا ببعض معاني العظمة في وقتٍ نُسيت فيه كلمة العظمة في ميادين السياسة القومية!

الثانية: تلك التي قادت حركة تحرير المرأة في مصر والشرق، وجاهدت جهادًا متصلًا في سبيل الرقي بمستوى المرأة المصرية الاجتماعي، وبذلت جهدها ومالها ووقتها في إقامة المنشآت العامة التي تنفع الفتاة والمرأة! ... ولقد خالفتُ هذه الزعيمة في بعض الآراء. لكن مهما يكن من أمر خلافنا في الوسائل والتفاصيل؛ فإني متفقٌ معها في الغاية والغرض الأسمى ... وهو رُقي المرأة المصرية والشرقية. من أجل ذلك لا يسعني إلا أن أعترف بعظمة هذه السيدة التي تُكرِّس حياتها لمثل هذا الهدف العظيم، وأرجو مخلصًا أن تنجح في رسالتها وأن يُنصفها التاريخ، الذي هو لا شك مُثبِتها على كل حالٍ في سجل العظيمات!

الثالثة: تلك التي لا يعترف بعظمتها سواي، لأنها مجهولةٌ كالجندي المجهول، وهي مثله تُمثِّل فئة تجاهد في الظلام جهاد الأبطال، فقد أتاحت لي الظروف، أن أعرفها وأراها عن قُرب. رأيتها وهي تُهذب أطفالها وتُنشئهم على حب المُثل العليا. لقد كانت تجمعهم كل ليلةٍ عقب العشاء لتقُصَّ عليهم قَصصًا لذيذًا مما تطالعها أثناء فراغها، تختاره من ذلك النوع الممتلئ بالبطولة الخلقية والفضائل الإنسانية. ولم يكن أطفالها وحدهم هم الذين يلذُّ لهم هذه القصص، بل زوجها أيضًا الذي كان يُبكر في العودة، حاملًا الحلوى، ليصغي إليها مع الأطفال ... لقد كانت هذه السيدة إلهة ذلك البيت بالمعنى العظيم لتلك الكلمة ... ولقد كانت المُعِينة لزوجها في كل شيءٍ الناصحة له في كل أمرٍ ... إذا شذَّ يومًا عن نُصحها ضل! ... لقد تحمَّلت معه قسوة الحياة منذ اليوم الأول، وذاقت معه مُرَّ الكأس، وكان نصيبها أكثر من نصيبه ... أما حلوها فما كانت تسمح لنفسها منه إلا بالأقل ... وكانت ذكية قوية الإرادة تتقن كل عمل، وتحب أن تحذق كل شيء يقع في محيط حياتها.

لقد أدارت بيتها خير إدارة، بل أدارت مزرعة زوجها خيرًا منه، يوم اضطرتها الظروف إلى هذا العمل. ولقد شاهدت أولادها يشبُّون على مبادئ الخلق القويم والرجولة الكاملة التي غرستها فيهم، ورأت زوجها يختِم حياته السعيدة لافظًا اسمها مع النفَس الأخير، فعلمت أنها أدت واجبها كزوجة صالحة وأم مُثلى، مَن هي هذه السيدة؟ ... ذلك لا يهمنا ولا يهمها، فحسبُنا أن نعرف أنها امرأة عرفت واجبًا وأدته على الوجه الأكمل! ... وهذا ليس بالشيء القليل على هذه الأرض! ... وهذا وحده يكفي أن ننحني لها احترامًا، كما ننحني أمام تمثال الجندي المجهول — ذلك البطل المستتر — رمز البطولة المستورة التي لا تقل شأنًا عن البطولة المشهورة!

الرابعة: تلك التي تريد زوجًا لا كأغلب الرجال بل رجلًا ذا رسالة عامة شاقة، يكافح في سبيل أدائها مُعرِّضًا حياته للنجاح والفشل، وللسلامة والخطر ... رجلًا يعيش بمُثل عليا، يرجو أن يُنير بها طريق الناس والإنسانية! ... لماذا تريد أن تُقرن حياتها بحياة هذا الرجل؟ لأنها تريد أن تُكرِّس نفسها لهدفٍ عظيم! ... إنها إذَن عظيمة النفس ... إني أتصور ما تستطيع أن تصنع لزوجها مثل هذه المرأة؟ ... إنها ستسهر عليه كما تسهر العين اليقظة على المصباح المضيء، تحرص على استمرار تألُّقه وتمسح عنه الدخان وتملؤه بالزيت من حينٍ إلى حين!

المرأة والحرية

من بين الأساطير الهندية أسطورة معروفة في كل مكانٍ ... خلاصتها أن الإله «تفاشتري» عندما خلق الدنيا، تناول في يده العناصر كلَّها، وصنع منها الشمس والقمر والنجوم والجبال والرياح والبحار والأشجار والحيوان ... وأخيرًا الإنسان ... في صورة الرجل الأول ... وجاء ذلك الرجل شاملًا لكل العناصر مستنفِدًا لها صفات غيرها من الكائنات، فأخذ لها من الشمس ضياءها، ومن القمر استدارته، ومن النجوم بريقها، ومن الجبال عنادها، ومن الرياح تقلُّبها، ومن البحار مُيوعَتها، ومن الأغصان مرونتها، ومن الندى دموعه، ومن الورق خِفته، ومن اليمام وَداعته، ومن النمِر قسوته، ومن الطاووس خُيلاءه، ومن النار حرارتها، ومن الجليد برودته.

عجَنَ الإله كل هذه الصفات وصنع من تلك العجينة ذلك المخلوق الذي يُسمَّى «المرأة» وقدَّمه إلى الرجل ... هدية تؤنسه وتسره وتُسعده. فتقبَّلها الرجل شاكرًا ... ولكن لم يمضِ قليلٌ ... حتى رأى الإله ذلك الرجل يأتي إليه شاكيًا: خُذ هديتك! ... إنه سلطانٌ طاغٍ ... إنه مخلوقٌ لا منطق له ... إنه يسير في اتجاهات مختلفة ... وطُرق متعارضة ... ما يحبه اليوم يكرهه غدًا، وما رفعه أمس خفضه اليوم، من أين جئتَ به؟ ... وكيف صنعته؟ ... كل المتناقضات فيه ... كأنه ثوب مُرقَّع ... فيه من كلِّ لونٍ قطعة! ... ومن كلِّ مادةٍ بضعة!

فقال الإله: وما الذي يُزعجك من تناقضه وتقلُّبِه، ما دمْت أنت المالك لزمامه؟

فقال الرجل: مَن قال إني المالك للزمام! ... لقد قال لي حقًّا إنه جاء لخدمتي ولمصلحتي ولهنائي ولرفعتي ... ولكن ما إن استقرَّ في حياتي حتى غدا هو كالسلطة الطاغية في الشعب الضعيف!

فقال الإله: هذا ليس من حقِّه! فقال الرجل هذا هو الذي حدث ... إنه لم ينثُر على حياتي رغدًا، ولا نعيمًا ولا هناءً ولا رخاءً! ... فهو الأثَرة بعينها، والأنانية قائمةٌ على قدمين! ... تُجردني مما عندي لتمتلئ هي وتنتفخ، إن هذا المخلوق سَلبني ما معي ولم يعطني شيئًا! قال الإله: وكيف تركته يفعل؟!

فقال الرجل: لست أدري! ... لقد خدَّر إرادتي ... واستغلَّ لحظات ضعفي، واغترَّ بإخلاصي وحبي، فجعل يتصرف في أمري ومالي تصرُّف المالك في عبده! ... وليته أحسن التصرُّف! لقد استبدَّ برأيه فلم يحفَل بالإصغاء إليَّ، أو يأبه بالتماس المشورة عندي!

فقال الإله: وماذا تريد مني الآن؟ فقال الرجل حريتي ... أعطني حريتي، وخُذ هديتك ... الطاغية! فقال الإله: لست أنا الذي سلبتك حريتك، حتى أرُدها عليك! ... أنت الذي قدَّمتها بمطلق اختيارك إلى هذا المخلوق ... الذي تُسميه طاغية! ... إني لم أجِد لك أضعف منه لأمنحك إياه ... مخلوقٌ — كما اعترفتَ أنت لا عقل له ولا منطق — لا يدري ما يفعل اليوم، ولا ما يتَّجه إليه غدًا، أعطيته لك ... لتحكُمه لا ليحكُمك ... ولتوجِّهه لا ليوجِّهك ... ولتأخذ منه هناءك، لا ليأخذ منك دماءك! ... ما دخلي أنا إذا كان العكس هو الذي حدث؟! ... ثِق أني لن أجدَ لك أضعف منه حاكمًا لك!

قال الرجل: وماذا أصنع الآن؟

فقال الإله: كافِح! ... كن رجلًا! ... إني أذكُر يوم خلقتك رجلًا، أني جعلت لك قوة وجلَدًا!

قال الرجل: ألا تُخلِّصني من هذا المخلوق؟

قال الإله: أُخلِّصك منه ... على شرطٍ ... أن أُخلِّصك في نفس الوقت من قوتك!

– قوتي؟!

– نعم! قوتك التي آثرتُك بها وميَّزتُك ... إني ما أعطيتُك القوة عبثًا ... إنما أعطيتك القوة لتكافِح بها في سبيل إرادتك! ... وما دامت لك إرادة، فلن يسلبَك طاغيةٌ حريتك!

واختفى صوت الإله خلف السُّحب ... وترك الرجل وحيدًا، يفكر ويردد: إرادتي؟!

ثم ثاب إلى رُشده أخيرًا ... فانطلق إلى بيته لا يلوي على شيءٍ ... وقد دبَّر في نفسه أمرًا ... فما بلغ أعتاب الدار، حتى رأى ذلك المخلوق الضعيف المتعجرف واقفًا وقفة الزهو، وقد عقد على رأسه الفارغ من العقل، تاجًا من زهر! ... وهو يتأهب للصياح بلهجة

الآمر، فاقترب منه الرجل، وأمسك بشَعره الطويل الفاحم، وجزَّ منه بسكينٍ خصلات، فتَلَ منها حبلًا أوثق به يديه!

ثم قال: الآن أيُّها السلطان الطاغي، لن تأخذ مني حريتي!

المرأة والبيت

سألَتني كذلك إحدى المجلات عن رأيي في الفتاة المصرية الحديثة، وفهمها لرسالتها نحو «البيت»، فأبديت خوفًا شديدًا من أن يؤدي تيار الحياة العصرية إلى جرف المرأة المصرية بعيدًا عن واجبها الأسمى. فالفتاة اليوم أمام هيكلَين هائلَين، يؤثران في عقليتها الناشئة ومجرى تفكيرها الحديث: دُور السينما، ودُور الجامعات، وإني لأخشى أن أقول إنَّ الفتاة في مصر اليوم إذا فقدت الاتزان، واندفعت بكل روحها إلى أحد هذَين الهيكلَين، فلا مناص لها من أن تكون إحدى اثنتَين:

الأولى: تلك التي تخرَّجت بنجاح في دور السينما والملاهي، وحذَقت تقليد ممثلات «هوليوود» ورأت «كلوديت كلولبير» تصفع زوجها في الرواية على خدِّه الأسيل، فيمسح مكان الصفع بالمنديل، وراحت تُراقص هذا وذاك، وتجلس على مقعد «البار» العالي وتتمدد عارية على أديم الرمال، ولا تعرف من شئون الدنيا والآخرة غير الكلام في الجاذبية وقلة الجاذبية التي عند الرجال، ولا تدرك أن عليها لزوجها واجبات، فهي ليست مسئولة عن بيتٍ ولا مطبخٍ ولا أولاد؛ لأن هذا من عمل الخدَم والمربيات ... أما هي فوظيفتها في الصباح الطواف بحوانيت الزينة والثياب والذهاب إلى الخياطات، وفي الظهر استقبال زوجها بالطلبات، وفي العصر التعلُّق برقبته ليخرج بها إلى النزهة، أو يدعها تذهب إلى «زوزو» و«شوشو» و«موشو» للعب «البريدج» و«الكونكان»!

أظن مثل هذه المرأة توافقني على أن الرجل المحترم المسئول هو آخر مَن يفكر في قبول مثل هذه المرأة شريكًا محترمًا يسير إلى جانبه في طريق حياةٍ جديةٍ قد تكون عظيمة الأثر في تاريخ بلاده!

أما النوع الثاني من المرأة: فهو نوعٌ تخرَّج بنجاح في المدارس والجامعات، فحذَق تقليد الرجل في جهله بشئون البيت، ومعرفته بآراء «أفلاطون» و«أبي العلاء»، نوع من حائزات البكالوريات أو الدبلومات اللاتي قد يَصلحن للتدريس أو التوظيف، ولكنهن لا يصلحن زوجات! … نساءٌ يعرفن «أفلاطون» ولا يعرفن كيف تُقلَى بيضة، فإذا مَرِض الطباخ أو خرج تغذَّى الزوج المحترم بزبدة أفكار «أفلاطون»!

أما خريجات المدارس الإنجليزية — ممن تعلَّمن قشور اللغة الفرنسية أو الإنجليزية ومبادئ البيانو — فإنهن عرائس جوفاء صُنعت في حوانيت «المير دي ديو» أو «المدام دي سيمون»، لتوضع مع جهاز العُرس في بيت زوجٍ مسكين، كُتب عليه أن يُنكَب بحمل هذه الدُّمية المتحركة الناطقة «بمون شير» و«ماشيري» من حيث أراد مُعِينًا يُعينه على حمل متاعب الحياة!

وكلتا المرأتينِ لم تفهم مما تعلمته في هذه المدارس المختلفة غير شيءٍ واحدٍ: حقها المطلق في السيطرة على الرجل وإخضاعه وعدم طاعته، وجعله خادمًا لمطالبها، نازلًا على إرادتها، واعتبار أي حقٍّ له قبلها تأخرًا، يُقابل منها بالاحتجاج والازدراء … هذا حادثٌ في مصر بالفعل الآن!

أما في أوروبا، حيث عرفت المرأة كيف تصل إلى الاتزان المطلوب، فهاكُم ما تقوله زوجةٌ فاضلةٌ في إحدى القصص الفرنسية الشهيرة قرأتُها أخيرًا بالمصادفة: «منذ الأيام الأولى لزواجي، رسمتُ لنفسي خطَّ سيرٍ محددًا: هو أن أسمع وأعمل كل ما يريده زوجي، ولم أنحرف قطُّ عن هذا المبدأ. ولقد وجدت نفسي بذلك على خير حال؛ إذ بفضل ذلك جعل زوجي يسمع ويعمل كل ما أريد! … هنا سِرُّ سعادتي، وهي كما ترى قائمةٌ على هذا المبدأ البسيط: فلتفعل الزوجة ما يُعجِب زوجها، ويفعل هو ما يُعجِبها! …» هل يستطيع أحدٌ أن يَعُد لي كثيرًا من الزوجات عندنا اليوم يسِرنَ على مثل هذا المبدأ البسيط؟!

إني أعتقد أن الزوجة الصالحة هي تلك التي تستطيع مشاركة زوجها في سيره الطويل الشاق في طريق الحياة، وأن تُعينه حقيقة أصدق المعاونة على احتمال متاعب السير، وأن تُخفف عنه قسطًا وافرًا من أعباء الحياة اليومية!

لكَم أثَّرت في نفسي صورةٌ أخيرةٌ للمستر «تشرشل»، وهو يمشي إلى جوار زوجته، متنزهَين في أحد الطرق! … كل ما في تلك الصورة يدل على أن هذَين الزوجَين قد قطعَا معًا على هذا النحو طريق الحياة بما فيه من هناءٍ وشقاء.

كذلك أثَّرت في نفسي كلمة إهداء، صدَّر بها أحد كبار رجال السياسة في فرنسا كتابًا له ختم به حياة كلها كفاح:

«إلى زوجتي التي تشاركني أيامي البيض وأيامي السُّود!»

فإلى أن تَكثُر في مصر والشرق مثل هذه الشريكة، لن نجد بكثرة رجالًا عظامًا، يحتملون السير في طريق الجهاد والمجد حتى النهاية!

سليقة المرأة

أذكرُ أن فتاة مثقفة سألتني ذات يومٍ عن رأيي في اشتغالها بالصحافة ... وهل هذا العمل يناسب طبيعتها باعتبارها امرأة؟ ... فقلتُ لها: ثقتي أن المرأة مُخبرةٌ صحفيةٌ بالفطرة ... سواء التحقت بجريدة أو ببيتها ... لقد كان «آدم» في الجنة هادئًا وادعًا ساكنًا لا يُفكِّر في شيء، ولا يصل إلى عالَمه أمر. فمَن الذي جاءه بالخبر الأول في تاريخ الأخبار ... وأعني به اقتراح «إبليس» أكل الفاكهة المحرمة؟ ... أليست هي «حواء» التي نقلت إلى «آدم» هذا الخبر الهام؟!

مَن الذي كان يسمع من «الحية» الكلام، ويُجري معها «الأحاديث»، ويستقي منها الأخبار، ويُفضي بها إلى آدم؟ ... أليست هي حواء؟ ... إني أعتقد أن هذه الحادثة هي أول عملٍ صِحفي منذ بدء الخليقة! ... وبهذا تكون «حواء» هي أول صِحفية مخبرةٍ ظهرت في الكون، قبل أن تخطر فكرة الصِّحافة على بال مخلوق!

إن الصِّحافة في دم المرأة ... وهي عندما لا تجد خبرًا تنقُله أو شخصًا تستجوبه، تعمِد إلى زوجها فتفضي إليه بكل ما سمعت في يومها وما رأت في نهارها ... أما إذا كان الزوج هو القادم عليها من الخارج فإنها تستقبله بالسؤال تلو السؤال: أين كنت؟ ... ومع مَن كنت؟ وفيمَ كنتم تتحدثون؟ ... والويل له إذا تهرَّب من الإجابة متذرعًا بالتعب، أو راجيًا تأجيل الحديث، أو مؤكِّدًا أنه لم يقابل أحدًا ذا بال، فإنها عندئذٍ تعامله كما لو كان وزيرًا خطيرًا يُخفي عنها عامدًا أسرار أزمةٍ دولية! ... فهي تُضيِّق عليه الخناق ... وتحاوره وتداوره بكل حِذقٍ وبراعة، فإذا أكَّد لها أو أقسم أنه ليس عنده ما يستحق الكلام، صاحت به: أهذا معقول؟ كل هذا الوقت في الخارج وليس عندك ما تقول؟ ... وتظل به تستحثه حتى يُضطر المسكين إلى أن يلفِّق لها خبرًا لم يقع ... ولكنها بسليقتها تدرك أن ما قال ليس له نصيبٌ من الصحة، فتبتسم وتسكت متظاهرة بالإصغاء، إلى أن

يتورط في سلسلة من الأكاذيب والمتناقضات، فتُمسك به متلبِّسًا بالأكذوبة، فيعترف، وهنا تقول له: لن أُصدِّقك بعد اليوم ... كل أخبارك كاذبة.

– ومَن قال لكِ أن تتخذيني مصدرًا للأخبار؟

– لماذا تخترع؟ ... لماذا لا تقول الحقيقة؟

– لأنَّه لا توجد حقيقةٌ ... لا يوجد شيءٌ على الإطلاق ... وأنتِ مصممةٌ على أن تنتزعي مني خبرًا بأي طريقة!

– أريد خبرًا صحيحًا لا مخترَعًا!

– لا يوجد ... قلتُ لكِ: لا يوجد ... ليس عندي اليوم خبرٌ صحيح. لم يبقَ إلا أن أخترع! ... وإلا فلأسكت سكوتًا مطبقًا ... وإياكِ أن تسأليني شيئًا أبدًا!

– إذَن اخترع ... هذا على كلِّ حالٍ خيرٌ من لا شيء!

نعم ... إن الصحافة الإخبارية ميراث المرأة عن جَدتها «حواء» ... فلتهبط ميدانها إذا شاءت، ولتنقل من الأخبار ما أرادت، ولتستقِ من المصادر ما وجدت! ولن يعوزها اليوم أيضًا في الدنيا «إبليس» ولن تنقُصها «حيَّةٌ»، فإن محيط المجتمع من قوميٍّ وعالميٍّ يعجُّ ويضجُّ بالأبالسة والشياطين والحيَّات والثعابين، بأحاديثها ومغرياتها ومقترحاتها.

ولعلَّ ملايين السنين قد علَّمت المرأةَ الآن الحكمةَ ... فلن تنقل «الخبر» الذي يُخرج آدمها الجديد من «الجنَّة»!

هنـــداوي